مـــــــــــــــقـــــــــــرر

العقيدة (1)

لطلبة الجامعة المفتوحة

المبحث الأول

مبادئ علم التوحيد

المبحث الأول

مبادئ علم التوحيد

من المعلوم أن لكل علم مبادئ ومقدمات ، وهى مسائله التي ينبغـــي للباحث معرفتها حتى يتصوره تصورا كاملا ليكون طالبه على بصيرة فـــي طلبه ، فإذا تصوره بتعريفه سواء أكان حدا لمفهوم ، أم رسما له فقد أحـــاط بجميعه إحاطة إجمالية [1] .

وهذه المبادئ هي : تعريفه ــ موضوعه ــ فائدتــــه ــ واضعــه ــ اسمه ــ حكمه ــ نسبته ــ مسائله ــ فضله ــ استمداده .

وقد جمعها بعضهم بقوله :

إن بـــادي كل فن عشرة	الحـــد والموضوع ثم الثمــــرة
وفضله ونسبة والواضعْ	والاسمُ الاستمدادَ حكمُ الشارعْ
مسائلٌ والبعضُ بالبعض اكتفى	ومن درى الجميــــع حاز الشرفا

(أ) تعريفه :

التوحيد لغة : العلم بأن الشيء واحد .

---

(1) انظر: الإيجى . المواقف. ج1 ص22 .

واصطلاحا / بمعنى الفن المدون / عرّفه كثير من العلماء بتعريفات مختلفة ، عرفه عضد الدين الإيجى بقوله : ((هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامه إياها بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها [1])) ،

ثم بين المراد بالدينية فقال : أي المنسوبة إلى دين محمد / صلى الله عليه وسلّم / ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام [2] .

ومن هذا التعريف يدرك الباحث رسالة علم التوحيد ، وهى تعريف المسلم كيف يدافع عن دينه ، أي إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامهم بها بالحجج والبراهين ، كما يفهم منه كذلك / بأن العقائد الدينية يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها ، وإن كانت مما يستقل العقل فيه .

والمعنى العام لهذا التعريف أن علم التوحيد هو علم بأمور يقتدر معها ، أي يحصل مع ذلك العلم حصولا دائما عاديا قدرة تامة عن إثبات العقائد الدينية على الغير ، وإلزامها إياه بإيراد الحجج ودفع الشبه ، فإيراد الحجج إشارة إلى وجود المقتضى ، ودفع الشبه إشارة إلى انتفاء المانع .

---

(1) نفس المصدر . ج1 ص 23 .

(2) نفس المصدر . ج1 ص 25 — 26 .

ثم إن المراد بالأمور — هنا — ما يقصد به نفس الاعتقاد ، كقولنا : الله /تعالى/عالم قادر مريد سميع بصير ، لا ما يقصد به العمل ، كقولنا : صلاة العصر فرض وصلاة الوتر سنة .

وعرفه ابن خلدون بقوله : هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة . [1]

وهذا التعريف يتفق مع تعريف الإمام الغزالى لعلم التوحيد إذ يقول : هو علم مقصده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها من تشويش أهل البدعة . [2]

ويورد سعد الدين التفتازانى في كتابه : (المقاصد) تعريفا لعلم التوحيد ، فيقول : هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية . [3]

والعقائد جمع عقيدة ، والمراد بها ما يجب شرعا اعتقاده ، كوحدانية الله/ تعالى/، وقدرته ، وإرادته ، ونحو ذلك ، وخرج به الأحكام الشرعية ، كالعلم بوجوب الصلاة وغيرها فإنه فقه ، وليس علم توحيد ،

---

(1) المقدمة ص 400 .

(2) المنقذ من الضلال . تقديم د. عبد الحليم محمود ص. 76 .

(3) أحمد المكناسي . أشرف المقاصد في شرح المقاصد ص 12 ، وانظر : تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام للكردستاني ج1 ص. 8 — 9 .

وخرج به أيضا العلم بالأحكام غير الشرعية ، كالعلم بالعلوم التجريبيـــة ، والطبية وغيرها .

وقد سار الشيخ محمد عبده / في تعريفه لعلم التوحيد / علـــى نـــهج التفتازانى مع شئ من التوضيح ، فيقول : هو علم يبحث فيه عـــن وجـــود الله / تعالى/ ، وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصـــف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم ، وما يجـــب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم [1].

ولعل تعريف أبى نصـــر الفـــارابي (ت 339 هـــ) مـــن أقـــدم التعريفات التي دونها العلماء ، يقول هـــذا الفيلســـوف / في تعريفه لـــهذا العلم / : صناعة الكلام يقتدر بها على نصرة الآراء والأفعال المحمـــودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل [2] .

من خلال تعريف الفارابي يتبين لنا أن علم التوحيد صناعة تحتـــاج إلى معرفة وعلم ومراس ومران ، ولابد لهذه الصناعة مـــن قـــدرة علـــى إظهار حجج المخالفين والرد عليها ، وحمل المخالف على وجه يوافق مـــا في الدين .

---

(1) محمد عبده *رسالة التوحيد* ص4 .

(2) الفارابي : *إحصاء العلوم* ص71 .

يتضح لنا من التعريفات السابقة كلها أن علم التوحيد له دور مهم في تثبيت العقائد الدينية ، والبرهنة عليها بالأدلة المناسبة لكل عصر ، ثم دفـــع الشبه المثارة ، أو التي يمكن أن تثار .

بناء على ذلك فإن لعلم التوحيد طابعين : تعليمـــي ، ويتمثـــل فـــي توضيح العقيدة والاستدلال عليها من الكتاب والســـنة ، وترســـيخها وفـــق منهـــج العصر . وهـــذا ما يمكن فهمه من تعريفي الشيخ محمـــد عبـــده ، وسعد الدين التفتازاني .

وطابع دفاعي ، ويتمثل في الرد على المنحرفين من أهـــل البـــدع ، ودفع الشبه عن العقيدة بأساليب منظمة ، وحجج قوية . وهذا ما يفهم مـــن خلال التعريفات الأخرى التي سبق ذكرها .

ولعل الطابع التعليمي هو الذي ساد في العصـــور المتـــأخرة [1] ، وصار العلماء في العصور الحديثة يرددون ما قاله الأولون ، بل وينتقـــدون ولا يأتون بالبديل المفيد .

(ب) <u>اسمـــه</u> :

1 ـــ سمى هذا العلم علم التوحيد ، وسمى بذلك لأن مبحث الوحدانيـــة أشهر مباحثه ، كما سمى بعلم التوحيد والصفات ، وقد لازمته هذه التســـمية

---

(1) *انظر د. بالقاسم بن محمد الغالى . علم الكلام بين تحديات الأمس واليوم . مقال منشور بمجلة كلية الدعوة الإسلامية . العدد الثاني عشر ص76 .*

الأخيرة لما انحصر دور هذا العلم في الجانب التعليمي ، وتخلى أهله عن الدفاع عن العقيدة ورد الشبهات عنها .

2 — ومن تسمياته كذلك : علم أصول الدين ، أي العلم الذي يبحث فيه المسائل الأصولية ، كالعقائد الجوهرية ، ونحوها تمييزا له عن علم الفقه الذي يبحث في الفروع ، وعن علم أصول الفقه الذي يهتم بالنظر في الأدلة الشرعية من حيث تستنبط منها الأحكام والتكاليف .

3 — ويسمى كذلك علم النظر والاستدلال ، لأنه قائم على النظر في المسائل العقدية ، مستدلا عليه بالأدلة العقلية والنقلية .

4 — وسماه أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — الفقه الأكبر تمييزا له عن الفقه الأصغر ، وهو فقه العبادات والمعاملات .

5 — كما سمي أيضا بعلم الكلام ، ولعل هذه التسمية قد غلبت عليه في أغلب العصور ، والسبب في هذه التسمية — كما في المواقف — أنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم كالمنطق للفلسفة [1] ، الذي يجعل الفيلسوف بارعا في الاستدلال ، أو لأن مسألة : (كلام الله) كانت أشهر المباحث وأكثر المسائل التي دار حولها الجدال والنزاع بين المعتزلة من جهة ، وأهل الحديث من جهة أخرى [2] .

---

(1) *عضد الدين الايجي : المواقف . ج1 ص 39 — 40 .*

(2) *التفتازاني : شرح العقائد النسفية ص15 .*

وسمي بذلك (أي بعلم الكلام) لقوة أدلته ، ووضوح حجته حتى صار كأنه هو الكلام دون ما عداه من العلوم ، كما يقال للأقوى من الكلامين هذا هو الكلام !! .

ويشير المرحوم مصطفى عبد الرازق إلى أن البحث في أمور العقائد كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم ، وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين ، فلما دونت الدواوين ، وألفت الكتب في هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقبا لهذه الأبحاث قبل تدوينها علما على المتعرضين لها [1] .

(ج) *موضوعه :*

موضوع علم التوحيد هو المعلوم من حيث يتعلق به ذلك الإثبات ، وقيل موضوعه : الله /تعالى/ ، ورسله/ عليهم الصلاة والسلام / ، والسمعيات من حيث اعتقادها والإيمان بها ، وقيل إن موضوعه الموجود من حيث هو موجود .

(د) *فائدته :*

فوائد علم التوحيد تتعدد باعتبارات مختلفة ، فبالنسبة لفرع الدين بناء العلوم الشرعية عليه ، فإنه إذا لم يثبت إله واحد مرسل للرسل منزل للكتب لم يتصور علم تفسير ولا حديث ولا فقه ، وغيرها .

---

(1) *مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص265 .*

وبالنسبة لأصول الدين : دفع الشبهات عنها ، وبالنسبة لقوة الشخص الفكرية الانتقال من التقليد إلى اليقين ، وبالنسبة لقوته العملية الإخلاص في العمل ، فإنه يكون بفوز معرفة الله /تعالى/ ، والخوف من عذابه ، والطمع في رحمته وثوابه ، وبالنسبة إلى الغير إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة في ذلك ، وحفظ قواعد الدين عن أن يزلزلها شبه المبطلين .

وأخيرا فإن الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله/ تعالى/ بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصديق برسله — عليهم الصلاة والسلام — على وجه اليقين الذي تطمئن إليه النفس اعتمادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه القرآن الكريم ، وسنة الرسول الأمين /صلى الله عليه وسلم/ ، فالدين الإسلامي دين توحيد في العقائد لا دين تفريق في القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوي أركانه .

(هـ) واضعه :

والمقصود بواضع علم التوحيد أي المدون لمسائل هذا العلم وموضوعاته ، وليس المقصود التوحيد بمعناه العام إذ بهذا المعني الأخير هو رسالة كل رسول من رسل الله — عليهم الصلاة والسلام — .

والذي دوّن علم التوحيد ، وأرسى قواعده في بداية نشأته " واصل بن عطاء " وأتباعه ، "وأبو الحسن الأشعرى" وأتباعه ، "وأبو منصور الماتريدى" وأتباعه .

(و) حكمه :

يشير الإمام الغزالى إلى أن التبحر في علم التوحيد ، والاشتغال به ، وتحقيق مسائله وبراهينه ليس فرض عين ، ولكنه فرض كفاية ، أما أنه ليس فرض عين فلأن الواجب في حق عامة الناس إنما هو الإيمان وتطهير القلب من الشكوك ، وإنما تكون إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك فقط .

وأما أنه فرض كفاية فلأن كل زمن وكل بلد لا يخلو عن مبتدع يثير على الناس الشكوك في عقائدهم بما هو عليه من الزيف والضلال .

وإزالة الشكوك في العقائد أمر واجب ، فإذا لم يقم به أحد — والحالة هذه — أثم الناس جميعا (1) .

ومن العلماء من قال إن حكمه الوجوب العيني على كل مكلف ، وأقل ما يتحقق به هذا الواجب معرفة العقائد الإسلامية بالأدلة الإجمالية ، أما معرفته بالأدلة التفصيلية فهو واجب على الكفاية .

---

(1) الإمام الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد . تحقيق د. عثمان عيش ص25 — 26 .

والمراد بالدليل الإجمالي هو ما يعجز المكلف عن تفصيله ورد الشبه عنه ، ومعنى الدليل التفصيلي هو ما يقتدر معه على إقامة الحجة ودفع الشبهات .

(ز) مسائله :

كل حكم نظري لمعلوم هو من العقائد الدينية ، أو متوقف عليه إثبات شئ منها، وعلم العقائد الدينية هو العلم الأعلى ، وبهذا الاعتبار ليست له مبادئ تبين في علم آخر ، سواء أكان علما شرعيا أم غير شرعي ، لذلك فإن علماء الإسلام قد دونوا لإثبات العقائد الدينية المتعلقة بالباري / تعالى/ وصفاته وأفعاله ، وما يتفرع عنها من مباحث النبوة والمعاد علما يتوصل به إلى إعلاء كلمة الحق فيها ، ولم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه إلى علم آخر أصلا ، فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد ، والمباحث النظرية التي تتوقف عليها تلك العقائد ، سواء أكان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها ،أم باعتبار صورها ، وجعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة في علمهم هذا ، فجاء علما مستغنيا في نفسه عما عداه [1] .

ويمكن أن يقال إن مسائل علم التوحيد هي القضايا الباحثة عما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى /، وفى حق رسله / عليهم الصلاة والسلام // ، وعن السمعيات ووجوب الإيمان بها .

---

(1) انظر الايجى : المواقف ج1 ص37 ــ 38 .

(ح) نسبته :

والمراد بذلك نسبته إلى غيره من العلوم ، فهو أصل العلوم الشرعية ، ورئيس العلوم على الإطلاق لنفاذ حكمه فيها بأسرها ، وليس ينفذ فيه حكم شئ منها .

(ط) فضله :

علم التوحيد أشرف العلوم وأسناها ، لأنه قد شرف بشرف موضوعه ، وهو الله / تعالى / ، إذ لاشك أنه إذا كان المعلوم أشرف كان العلم به أشرف [1] .

(ي) إستمداده

من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال العلماء المبنية على الحجة والبرهان .

---

(1) نفس المصدر .ج1 ص 34 ــ 35 . .

المبحث الثاني

نشأة علم التوحيد

المبحث الثاني

نشأة علم التوحيد

كان المسلمون في عهد رسول الله / صلى الله عليه وسلم / متمسكين بكتاب الله / عز وجل / (القرآن الكريم) يقرؤونه ويفهمون معانيه ويعملون بكل ما جاء فيه ، يحلون حلا له ويحرمون حرا مه ، ورسول الله / صلى الله عليه وسلم / بينهم يبين لهم ما خفي عنهم أمره في جميع المسائل التي تتصل بحياتهم الدنيوية والأخروية .

فالسلف الصالح – رضوان الله عليهم أجمعين – ((خلصت قلوبهم من أدران التقليد والعصبية ، وصفت نفوسهم لما يدعوهم إليه رسول الإيمان / صلى الله عليه وسلم / ، واطمأنت خوالجهم إلى أمانة هذا الرسول الكريم وصدقه ، فعضوا على ما دعاهم إليه بالنواجذ ، واستمسكوا منه بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها [1])) .

فكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن الله / تعالى / موجود واحد لا شريك له بيده الأمر كله ((لله الأمر من قبل ومن بعد [2])) ، وأن محمدا

---

(1) محمد محي الدين عبد الحميد : مقدمة كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ص 4 .

(2) سورة الروم . جزء من الآية رقم 3 .

/ صلى الله عليه وسلم / رسول الله أرسله ((بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون[1])) .

لذا فإن القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين / صلى الله عليه وسلم / هما المرجعان الأصليان اللذان كانا يعتمد عليهما المسلمون في عصر النبوة الطاهرة ، وكيف تكون الحاجة إلى غيرهما ؟! والمسلمون في عهده / عليه الصلاة والسلام / يستمعون إلى ما يقرره الوحي الإلهي في كل المسائل التي تتعلق بعقيدتهم في الله / تعالى / وصفاته ، وفي موضوع الوحي وصفات النبي / صلى الله عليه وسلم / ، ودلائل صدقه وغاية رسالته ، بل في أمورهم كلها .

أجل إن المسلمين في عهد الرسول محمد / صلى الله عليه وسلم / غير محتاجين إلى أفكار وآراء واجتهادات وتأويلات ، إنهم محتاجون إلى نور النبوة يبين لهم ما نزل إليهم ؛ وبهذا فإن عقيدتهم في الله / تعالى / ، وفي كل ما يتصل بالأمور الدينية كلها كانت صافية نقية بعيدة كل البعد عن الشك والظن والوهم .

ومن هنا فإن الصحابة ــ رضوان الله عليهم أجمعين ــ لصفاء عقيدتهم ببركة صحبة النبي / صلى الله عليه وسلم / ، وقرب العهد بزمانه ، وقلة الوقائع والاختلافات وتمكنهم من المراجعة إلى الثقات ــ إنهم بسبب هذا كله مستغنون عن تدوين علم التوحيد ، وترتيبه أبوابا

[1] سورة الصف. جزء من الآية رقم 9 .

وفصولا [1] .

مضى زمن النبي / صلى الله عليه وسلم / ، وهو المرجع في الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعه أعداء الإسلام ، والجهاد في سبيل نشر دعوة الإسلام وجمع كلمة الأمة على طريق الحق والتوحيد .

ولم يكن للناس ــ وقتئذ ــ من الفراغ ما يجعلهم يبحثون في مسائل عقلية ، وأصول عقدية ، وإذا حصل خلاف ما فإنه يرد إلى مصدري الإسلام ، وإلى أولي العلم من الصحابة يحكمون فيه بما أنزل الله / تعالى / في كتابه الكريم ، وسنة خير المرسلين / صلى الله عليه وسلم / ، وأغلب الخلاف ــ إن وجد ــ كان في الأحكام الفرعية العملية ، لا في الأصول والأمور العقدية ؛ إلى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ مما أدى إلى قتله ؛ ثم توالت الأحداث بعد ذلك ، وحصل ما حصل في عهد الخليفة الرابع على بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ورضى عنه ــ وانتهى أمر الخلافة بموته ، وظهر السلطان في بنى أمية ، فانصدع بناء الأمة الإسلامية ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم الآراء ، وظهرت الفرق ، بعضها سياسي وبعضها ديني ، وأخذ كل فريق ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل .

[1] انظر : العقائد النسفية. ص 4 .

ولكن هذا لم يقف في طريق الفتح والدعوة إلى الإسلام ، ودخل أناس كثيرون في دين الله من الفرس والروم وغيرهما ، وبعض منهم يحمل بين جنبيه أفكاراً ومعتقدات ورثها عن آبائه وأجداده لا صلة لها بهذا الدين الحق الجديد .

وقد ظهر أثر من دخل في الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية والثنوية ، فقد بدءوا في إثارة المشاكل التي كانت تثار في أديانهم القديمة ، وكان كثير من أصحاب تلك الآراء قد تسلحوا بالفلسفة والمنطق اليونانيين ، فنظموا طرق بحثهم ، وتعمقوا في ذلك كثيرا ، وأخذوا في مهاجمة الإسلام وأصوله ، فكان لابد للعلماء المسلمين من الرد عليهم ، ومقارعتهم بالحجة والبرهان ، وبنفس السلاح الذي يستعملونه ، مما حتم عليهم دراسة علوم اليونان ، وبخاصة العلوم العقلية .

وكان المعتزلة هم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم حتى يستطيعوا الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، والرد على كل من يثير شبهة ضد الإسلام .

ويشير ((طاش كبرى زادة)) في كتابه : (مفتاح السعادة [1]) إلى أن مبدأ شيوع الكلام كان بيد المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة ؛ لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء (80 — 131 هـ)،

---

(1) جـ 1 ص 37 ،. وانظر كذلك : د . حسن إبراهيم حسن / تاريخ الإسلام . جـ 2 ص 335 — 337 .

وكان واصل به عطاء تلميذا للحسن البصري الزاهد المعروف (21 — 110 هـ) ثم اختلف معه في بعض المسائل ، واعتزله وكون بذلك مذهب المعتزلة .

ويذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الخلاف ظهر بين الفرق الكلامية في عهد الدولة الأموية ، واعتمد هذا النزع على كل وسائل الدفاع من جدل يقوم على أدلة نقليه و عقلية ، ثم تولدت مسائل اعتقاديه كانت موضع جدل ونزاع ... فظهر علم الكلام على أيدي هذه الفرق ، خصوصا المعتزلة .

وإذا كان واصل بن عطاء هو أول من أظهر الاعتزال فإنه أخذه عن الإمام أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الهاشمي المتوفى عام 98 هـ [1] .

وكان المعتزلة يعتمدون اعتمادا كبيرا على البحث العقلي الحر ، ويستعملون أساليب المنطق والجدل في مقارعة خصوم الإسلام ، فمال الناس إلى آرائهم ، وصارت هي السائدة بين الآراء الأخرى ، إلى أن ظهر الإمام أبو الحسن الأشعرى (270 — 330 هـ) الذي أخذ علم الكلام على أبى على الجبائى (235 — 324 هـ) وتبعه في الاعتزال أربعين سنة حتى صار إمام المعتزلة ، ثم أعلن رجوعه عن

---

(1) انظر : مصطفى عبد الرزاق . تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية . ص 287 .

مذهبهم (3) .

ويعتبر الإمام أبو الحسن الأشعرى أول من عـرض لنصـرة أهـل السنة بالبراهين العقلية ، وأخذ في مجادلة مخالفيهم ، خصوصا المعتزلـة ، اعتمـادا على النقل والعقل ، وكتب عدة مؤلفات فـي الـرد علـى الآراء الباطلة ، والانتصار لأهل السنة والجماعة حتى إن آراءه عرفت فيما بعـد باسم : (مذهب أهل السنـة والجماعة)

والإمام الأشعرى ــ على كل حال ــ كان في آرائه مقررا لما يقـول به السلف ، مدافعا عن العقيدة الحقة بطريقي النقل والعقل .

يقول صاحب كتاب : طبقات الشافعية الكبرى (المتوفى 756 هـ) :

((اعلم أن أبا الحسن الأشعرى لم يبدع رأيا ولم ينشئ مذهبا ، وإنما هو مقـرر لمذاهب السلف ، مناضـل عما كان عليـه صحابة رسـول الله / صلى الله عليه وسلم / ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقـد علـى طريق السلف نطاقا وتمسك به ، وأقام الحجج والـبراهين عليـه فصـار المقتدى به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا... وقـد ذكـر

---

(3) *انظر : ابن عساكر الدمشقي : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعرى ، وتجد فيه بيان الأسباب التي من أجلها ترك الأشعرى الاعتزال من ص 38 ـــ 43 .*

شيخ الإسـلام عز الدين بن عبـد السلام أن عقيدتـه اجتمـع عليـها الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والفضلاء الحنابلة (1)))

ويذكر المقريزي في ((خططه)) ما عليه المذهب الأشـعرى منـذ نشأته إلى عهده فيقول : ((وحقيقة مذهب الأشعرى ــ رحمه الله تعـالى ــ أنه سلك طريقا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال ، وبين الإثبات الـذي هو مذهب أهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا ، واحتج لآرائه فمال إليـه جماعة وعولوا على تلك الآراء ، منهم : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المالكى ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، والشيخ إبراهيـم بن محمد بن مهران الاسفارينى ، والشيخ أبو حـامد محمـد بـن محمـد الغزالى ، وأبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني ، والإمـام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، وغيـرهم ممـن يطـول ذكره ، ونصروا مذهبه ، وناظروا عليه ، وجادلوا فيه ، واستدلوا له فـي مصنفات لا تكاد تحصر ، فانتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى في العـراق من نحو 380هـ ، وانتقل منه إلى الشام (2) .

---

(1) *ابن تقى الدين السبكى : طبقات الشافعية . جـ2 ص 254 ــ 255 .*

(2) *الخطط جـ4 ص 184 .*

ثم انتشرت آراؤه في أقطار الدولة الأيوبية في ذلك الوقت التي كانت تعاضده ، ثم ببلاد المغرب على يد أبى عبد الله محمد بن تومرت . ومن هنا فان أراء علماء آهل السنة والجماعة صارت هي الآراء المقبولة لدى الغالبية العظمى من الناس إلى وقتنا الحاضر .

وكانت آراء علماء أهل السنة والجماعة الذين أتوا بعد الأشعرى تعتمد على العقل بالإضافة إلى النقل ، كما وضعوا المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، مثل : إثبات الجوهر الفرد ، والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وغيرها مما تتوقف عليها أدلتهم ، وجعلوا هذه القواعد تبعا للعقائد في وجوب الإيمان بها ، وقرروا أن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول ، وهذه الطريقة هي المسماة بطريقة المتقدمين ، وعلى رأس هذه الطريقة القاضي الباقلاني ، وإمام الحرمين الجويني .

ثم مارس أتباع مذهب الأشعرى المنطق ، وفرقوا بينه وبين العلوم الفلسفية ، وسموه : ((معيار العلوم)) ونهجوا في استدلالاتهم ومناظراتهم على نهج قواعد المنطق ، وساروا على طريقة أخرى سميت بطريقة المتأخرين ، وهى الطريق التي سار عليها الإمام الغزالى ، والإمام فخر الدين الرازى ، وغيرهما حيث وضحت طريقة هؤلاء أن الجهل بالدليل لا يؤدي إلى عدم المدلول ، وبنوا رأيهم هذا على أساس أنه قد يكون في الدليل الذي تقرر عند المتقدمين ضعف ، أو قد يوجد عند سواهم أقوى منه، إذ قد تقتضي الأحوال تعديله أو تبديله تبعا لتطور العلوم والمعارف، فلا معنى للحجر على العقول ، وليستدل الناس على العقائد بما هداهم إليه

المنطق والعقل السليم ما دامت النتيجة هي رسوخ العقيدة وثبات اليقين (1) . وبذلك فتحوا الباب أمام الجدل العقلي المبني على مناهج منطقية منظمة ، وأول من ألف في هذا العلم على هذا النمط الإمام الغزالى وتبعه الإمام فخر الدين الرازى .

ثم اختلط علم التوحيد بالفلسفة ، والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه واحدا ، كما نرى في مؤلفات عديدة في علم التوحيد لعلماء مشهورين مثل : كتاب الطوالع للبيضاوى ، والمواقف لعضد الدين الإيجى ، وأبكار الأفكار للآمدى ، والعقائد النفسية لنجم الدين عمر النسفى وغيرها .

وبعد هؤلاء ضعفت الهمم عن الدراسات القوية لعلم التوحيد ، وصار العلماء والباحثون في العصور المتأخرة والحاضرة مقتصرين على النظر في كتب السابقين وبيان مسائلها وشرحها .

وبعد فمهما كانت الأسباب إلى نشأة علم التوحيد ، سواء أكانت راجعة إلى نشأة الفرق ، أم إلى محاولة علماء المسلمين إلى فهم القرآن الكريم ، وسنة رسول الله /صلى الله عليه وسلم / ، أم إلى وجود حضارات وديانات أخرى ، أم غيرها ، فإن النتيجة التي يمكن أن تكون مرضية ومقبولة أنه كان من الضروري أن ينشأ علم التوحيد في العصر

---

(1) *انظر : محمود البشبيشى : تاريخ الفرق الإسلامية ص 15 .*

الذي نشأ فيه ، وأنه كان من الخير أن ينشأ لأنه قام بدور فاعل ومهم في تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد تمثل هذا الدور في إثراء الفكر العربي الإسلامي بكثير من المسائل العلمية الدقيقة التي لا تزال حتى يومنا هذا محل تقدير واحترام من العلماء المنصفين ، كما تمثل أيضا في رد علماء التوحيد على كل المارقين والزنادقة والمبتدعين ردا مبنيا على أسس متينة ، ومناهج قوية ، وأدلة مقنعة .

المبحث الثالث

علم التوحيد بين المؤيدين والمعارضين

المبحث الثالث

علم التوحيد بين المؤيدين والمعارضين

اختلف علماء المسلمين حول أهمية علم التوحيد ، فهناك من العلماء من امتدحه واستحسن الخوض فيه ، وهناك من ذمه ونهى عن تعليمه وتعلمه ، ومع تقديري واحترامي لأقوال وآراء علمائنا — رحمهم الله تعالى — ، وبعد قراءاتي لأدلة كل من الرأيين المذكورين أميل إلى الرأي الأول ، وأعتبره رأيا صائبا ومقبولا لما يأتي :

من المعلوم أن القرآن الكريم قد عني بالعقائد / التي ينبغي أن يعتقدها المسلم / عناية كبيرة ، فقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة بشأن العقائد الإسلامية ، وكان على رأس تلك العقائد عقيدة التوحيد ، ويذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره القيم : ((أن الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقي ففي بيان التوحيد والنبوة ، والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين .[1])) ويستخلص الرازى من هذا أنك لو فتشت علم التوحيد لم تجد فيه إلا تقرير هذه الدلائل ، والذب عنها ، ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيها[2] .

---

(1) الرازى : التفسير الكبير جـ1 ص 203 .

(2) نفس المصدر. جـ1 ص 203 .

إن الغرض من علم التوحيد–كما سلف – تقرير الدلائل والبراهين، على وجود الصانع ، وعلى صفاته ، وعلى النبوة والمعاد ، والناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد ذكر العقائد المخالفة لعقيدة الإسلام ، ورد عليها وأبطلها ، والآيات في ذلك كثيرة ، منها قوله تعالى : ((وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون [1]))

فقد حكي الله /تعالى/ أقوال الدهرية ، ورد عليها ، كما رد على أولئك الذين ألهوا الكواكب وعبدوها كالصابئة ، وذلك بمثل آية إبراهيم / عليه السلام / :

((فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين[2]))

كما رد على منكري البعث بمثل قوله/ تعالى/: ((يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين[3])) ، وغير ذلك من الردود على الكفار والمشركين ، وأصحاب

---

(1) سورة الجاثية : الآية 23 .

(2) سورة الأنعام : الآية 77 .

(3) سورة الأنعام : الآية 103 .

الديانات المحرفة ، ومن هنا فإن علم التوحيد قد تحددت رسالته في الدفاع عن العقائد الدينية ، ودفع الشبهات عنها انطلاقا من القرآن الكريم .

وعليه فإن علماء التوحيد / المتقدمين منهم والمتأخرين / ساروا على النهج الذي اختطوه لأنفسهم ، وألفوا في هذا العلم كتبا كثيرة ، وردوا على المخالفين والزنادقة ، ونجحوا في التصدي لكل أولئك الذين وقفوا ضد الإسلام وأهله .

فمقصود علم التوحيد — إذن — حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة ، على حد قول الإمام الغزالى [1] .

لقد أثيرت مشكلة القدر من جانب بعض النصارى الذين اعتنقوا الإسلام ولم يكونوا مخلصين فيه ، وأثيرت شبهات التشبيه والتجسيم من قبل من أسلم من اليهود ، وفي قلوبهم الكيد للإسلام ، وأثيرت فتن أخرى من جانب بعض من أسلم رياء ونفاقا من اليهود والنصارى وغيرهم [2] .

ونتيجة لذلك كله كان لابد للمسلمين من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم ، والدخول في جدل مع أصحاب تلك الآراء والعقائد الفاسدة ، وهذا الجدل يحتاج إلي التسلح بسلاح المنطق والحجج العقلية ، الأمر الذي ترتب عليه

---

(1) الغزالى : المنقذ من الضلال ص 118 .

(2) انظر : الشهرستانى الملل والنحل ج1 ص 113 ،

وانظر كذلك: البغدادي الفرق بين الفرق ص 15 — 16 .

وجود علم التوحيد باعتباره العلم المدافع عن العقائد الإســـلامية بـــالحجج والبراهين المبنية على الأقيسة المنطقية .

((وكان المهدي العباسي أول من أمر الجدليين من أهل البحث مـــن المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين وغيرهم ، وقد قام المتكلمـــون بهذا ، وأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، فأوضحوا الحق للشاكين [1])) .

لقد قام علماء التوحيد بالرد والنقد والنقض لآراء المخـــالفين لعقيـــدة الإسلام بعد أن درسوا مذاهب الخصوم حتى يســـتطيعوا الـــرد عليـــهم ، ويكون هذا الرد قاطعا لآراء المخالفين ، وهذا منهج له قيمتـــه العلميـــة ، وذلك لأن رد المذهب أو الرأي قبل فهمه والإطلاع على حقيقته رمى فـــي عماية ، على حد تعبير الإمام الغزالى [2] .

إن أولئك العلماء وجدوا أنفسهم في عصر مملوء بالعقـــائد الفاســـدة والديانات المحرفة ، والملل والنحل والأهواء التي يصعب حصرها ، فكـــان عليهم أن يواجهوا هذه كلها ، ويقاتلوا أهواءها بسلاح من نفس ســـلاحها ، ويستعملـــوا عقولهـــم في إدحاض كل بدعـــة ، جامعين فـــي حجاجهـــم بين

---

(1) ادم متز : *الحضارة العربية في القرن الرابع الهجري ج1 ص 354* .

(2) انظر : *الغزالي . المنقذ من الضلال ص 126* .

المعقول والمنقول [1].

إن علماء التوحيد وجدوا أنفسهم مدفوعين إلي البحـــث والجـــدال والمناقشة في مسائل العقيدة ، وفي مسائل أخري يرون أن العقيدة تتوقـــف عليها ، مثل : تركب الأجسام من الجواهر الفردة ، وجواز الخلاء وغيرهـــا ، كما وجدوا كثيرا من أهل الأهواء والبدع في المجتمع ينشرون أفكـــارا لا تتفق مع عقيدة هي الحق بعينه ، فهل إذا ردوا عليهم بالحجـــة والبرهـــان والنقل من القرآن الكريم ارتكبوا خطأ يستحقون عليه الإثم ، وينسبون إلـــي الابتداع في الدين ؟ ، وهل إذا تحدثوا في موضوعات العقيدة وفي مســـائلها المتصلة بها ، فهل كل ذلك يعتبر بدعة وضلالة ؟ .

وهنا يتساءل الإمام الأشعرى قائلا : هل صحيح أن كل بحث حـــول أمر لم يبحثه رسول الله / صلى الله عليه وسلم / يعتبر بدعة وضلالة ؟ لـــو كان الأمر كذلك للزم أن يكون الصحابة كلهم ، وكذلك التابعون على كثـــير من الضلالة ــ وحاشاهم ذلك ــ لأنهم ((أى المعترضين)) قد بحثوا فـــي أشياء لها تعلق بالدين من جهة التشريع لم يرد فيها نص عـــن رســـول الله /صلى الله عليه وسلم/ فقد بحثوا لفظ البائن والحرام في الطلاق مثلا ، كمـــا بحثوا مسائل العول والجدات فـــي علـــم الفرائـــض ..الـــخ ، ثـــم يقـــول للمعترضين على علم التوحيد : ولم قلتم إن البحـــث فـــي مثـــل الحركـــة والسكون والجوهر والعرض .. وغيرها بدعة وضلالة ؟ مع أن النبـــي /

---

(1) انظر : *محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج2 ص18* .

صلى الله عليه وسلم/ لم يقل إن من بحث في مثل هذا فهو مبتدع وضال ، وإذن فقد قلتم ما لم يقله رسول الله/ صلى الله عليه وسلم / ، وحكمتم بشي لم يحكم به ، فيلزمكم تبعا لتعليلكم أن يكونوا مبتدعة ضلالا [2] (وهذا لم يقل به أحد لأنهم كانوا على هدى) .

يقول شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام مبينا أن البحث في أمور العقيدة إنما هو من الدين ، يقول — رحمه الله تعالى — فإن لأهل الحق أن ينكروا المنكر ، ويردوا على أهل الباطل أقوالهم وبدعهم ، فكيف يكون مخطئا من أنكر المنكر ودعا إلي المعروف ... ولو جاءنا واحد وقال أنا متحير في إثبات شي من ذلك أو نفيه ، فهل نقول له حينئذ لا تسأل عن هذا فإن سؤالك عنه بدعة ، وتأمره أن يبقى على شكه وتردده في ذلك ، ولا تبين له الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب لأن الكلام في ذلك بدعة ؟! . كلا وكيف لا يكون ذلك من الدين ، وقد تكلمت فيه طوائف من المسلمين ؟! .

وأما الافتراء على الصحابة والتابعين والأئمة المتقين — رضوان الله عليهم أجمعين — بأنهم سكتوا على ذلك فجهالة عظيمة ، لأن سكوتهم عن

(2) *الاشعرى : استحسان الخوض في علم الكلام ص 4 .*

وانظر كذلك : د/ حمودة غرابة أبو الحسن الأشعرى ص76-77 .

وأما الافتراء على الصحابة والتابعين والأئمة المتقين — رضوان الله عليهم أجمعين — بأنهم سكتوا على ذلك فجهالة عظيمة ، لأن سكوتهم عن ذلك كان قبل ظهور البدعة ، ولا حجة لسكوتهم لأنهم سكتوا حيث يجوز لهم ذلك إلى أن ظهرت البدعة فتكلموا فيها [1] .

فالبدع يجوز السكوت عنها مادامت خامدة ساكنة ، فإن ظهرت وسارت وجب الابتدار إلى إنكارها وإبطالها ، وتبيين الحق في ذلك نصحا لدين الله ، وعملا بكتابه إذ يقول فيه : ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون [2])) .

وقد سار على نهج العز بن عبد السلام طائفة كبيرة من العلماء أيدوا أراء أهل السنة والجماعة في دفاعهم عن الدين بالمنقول والمعقول .

وقد لخص الإمام الغزالي ذلك بقوله : ((لقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسول الله / صلى الله عليه وسلم / عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله /تعالى/ طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل

(1) *انظر: محمد جمال الدين القاسمي . دلائل التوحيد ص72-75 .*

(2) *سورة آل عمران : الآية : 104 .*

البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قامت طائفة منهم بما ندبهم الله/تعالى/ إليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة (1) .

ثم إن علماء التوحيد إنما ساروا في مناهجهم الكلامية على منهج القرآن الكريم من حكاية الأقوال الفاسدة والآراء الباطلة ، وذكر البراهين القطعية لإبطالها ، غاية ما فيه إنهم أحدثوا اصطلاحات تليق بضبط العلم لأهل الزمان ، ولا حجر إجماعا في الأوضاع والعبارات والتصرف فيها بحسب ما يليق بمصالح الأقضية المطروحة (2) .

فعلم التوحيد قد بحث في دلائل وجود الله /تعالى/ التي أشار القرآن الكريم إليها ، ومن ذلك الدلائل الخمسة ، وهى : خلق المكلفين ، وخلق من قبلهم ، وخلق السماء ، وخلق الأرض ، وخلق الثمرات من الماء النازل من السماء إلي الأرض ، وكل ما ورد في القرآن الكريم من عجائب السماوات والأرض فالمقصود منه ذلك ، وقل مثل هذا في صفات الله /تعالى/ ، وفي النبوة والرسالة ، والرد على المعاندين والمكابرين .

---

(1) *الغزالى : المنقذ من الضلال . ص121 .*

(2) *انظر : عبد العزيز جاب الله . الدليل الصادق ج1 ص5 وما بعدها.*

أفترى أن علم التوحيد يذم لاشتماله على هذه الأدلة التي ذكرها الله /تعالى/ أو لاشتماله على دفع المطاعن عن هذه الأدلة ؟ . ما أرى أن مسلما عاقلا يقول ذلك ويرضى به (1) .

ويشير صاحب كتاب : ((كبرى اليقينيات الكونية)) إلى أن علم التوحيد إنما أطلق على المناقشات العلمية التي دارت أو تدور حول مبادئ العقيدة الإسلامية بقطع النظر عن نوع الشبه ، وطريقة البحث والنقاش فإن كل ذلك من شأنه أن يختلف ويتطور من عصر إلي آخر ، وأنه لا تنافى بين منهج علماء التوحيد ، ومنهج القرآن الكريم ، ولا تعطيل لأحدهما على حساب الآخر .

فنحن بحاجة إلي منهج القرآن بالنسبة لمن تركزت في قلبه مبادئ الإيمان بالله /تعالى/ ورسوله /صلى الله عليه وسلم/ ، ولكنه بحاجة إلي تقويتها والحفاظ عليها ، وإقامة الصورة الإسلامية الصحيحة في فكره دون أي زيف أو انحراف عنها ، ونحن ننصح لمثل هذا الإنسان بعدم إضاعة الوقت في تأمل هذه المناقشات الفكرية التي تحوم حول البحث في شبهات ما هو منها في شئ إلا أن يحتاج إليها في مجال توجيه الآخرين وتعليمهم ، ولابد له من ذلك على الأقل في مجال المعرفة العامة .

---

(1) *انظر : الرازى : التفسير الكبير. ج1 ص203 .*

ونحن بحاجة إلي المنهج الفكري الذي سلكه علماء التوحيد بالنسبة لمن لم يدخل بفكره بعد في دائرة الإيمان بالله /تعالى/ ورسوله /صلى الله عليه وسلم/ والقرآن الكريم ، لأن المنهج الذي سار عليه علماء التوحيد في عصورهم ، ونسير نحن عليه في مثل هذا الكتاب ليس خارجا على منهج القرآن الكريم .

فالقرآن أمرنا أن لا نقفو في أفكارنا واعتقادنا مالا علم لنا به ، وأمرنا أن نحكم العقل وموازينه في كل ما يعرض لنا من أمور الحياة .
والقرآن الكريم ناقش المشركين طبقا لميزان ((العلة الغائية)) الماثلة في الكون ، وهو الذي نبه أفكار المشركين إلي بطلان الشريك لله تعالى طبقا لما يقتضيه برهان : ((التمانع)) فأي دستور تريده من القرآن أكثر من هذا كي تطمئن إلي أن مناقشة أصحاب الشبهات طبقا لمقتضى الأدلة والبراهين التي يتعاملون بها هو من صميم المنهج القرآني ؟ (1)

وإذا كان علم التوحيد له من المبررات ما يجعله علما قيما مفيدا ، وقضاياه قضايا صالحة للبحث والمناقشة ، فإنه ينبغي أن يوجه — اليوم — للدفاع عن العقيدة الإسلامية — كما هو هدفه — بأساليب علمية ضد الملحدين والزنادقة ، والمارقين الذين يتربصون بالإسلام وأهله ، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كتب علم التوحيد التراثية لها قيمة علمية وتاريخية كبيرة في تصوير العصور التي كتبت فيها ، وبيان جهود مؤلفيها في التدليل

---

(1) انظر : د محمد سعيد رمضان البوطى . كبرى اليقينيات الكونية ص 16 – 17

للعقائد الدينية ، والرد على أرباب المقالات الزائفة والآراء المخالفة للعقيدة الإسلامية (2) .

بالإضافة إلي ذلك فإن مناهج أولئك العلماء تعتبر من المناهج العلمية القيمة التي تفيد الباحث في كثير من المسائل المتعلقة بالعقيدة والدفاع عنها والدعوة لها ، وإن تلك المناقشات العلمية التي دارت بين كثير من علماء التوحيد تعتبر في حد ذاتها علما يستفاد منه في علوم أخرى .

وأخيرا فعلي من عنده الرغبة الكاملة ، والعزيمة الصادقة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية والدعوة إلي الله /تعالى/ بالحجة والبرهان ، والتصدي للفلسفات المادية الملحدة ، والعقائد المنحرفة ، عليه أن يسلك في سبيل ذلك الإقناع بكل حججه ووسائله ، ابتداء من مناهج القرآن الكريم المتعددة ، وانتهاء بالأدلة البرهانية والعلمية التي تنبض بالحياة ، وتفحم الخصوم — التي جاء بها المفكرون قديما وحديثا — .

وخلاصة الموضوع فإن علم التوحيد الذي استحسنه العلماء ، إنما هو العلم الذي يرسخ العقيدة ويدافع عنها بالأدلة القاطعة والبراهين الدامغة ، البعيد عن البحث في ذات الله /تعالى/ غير المائل مع الانحراف والبدع ، السائر مع منهج القرآن الكريم لأنه أعدل منهج وأقوم طريق ، لا

---

(2) انظر : د. محمد يوسف موسي ، وزميله. مقدمة كتاب الإرشاد للجويني ص/ش

جدال في الله/تعالى/ ، ولا بحث في كنه ذاته ، ولا كثرة اختـــــلاف فـــي دينه ، ولا اتباع سبل مضللة ، ولكن اتباع ســـبيل واحــد ، صــراط الله ، ونظرة لهذا الوجود الذي يصافح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا وقلوبنــا ، نظرة تمتلئ بها القلوب خوفا وخشية لمن خلق فسوى وقدّر فهدى .

المبحث الرابع

أقسام الحكم العقلي

المبحث الرابع

أقسام الحكم العقلي

الحكم هو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ، وينقسم ثلاثة أقسام : شرعي ، وعادى ، وعقلي .

1 ـ فالحكم الشرعي هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما .

ومعني ذلك أن كلام الله /تعالى/ الأزلي قد خاطب به عباده ، إما أمرا ، كقوله : /تعالى/ : ((يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون [1])) ، وإما نهيا كقوله / تعالى/ : ((ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن [2])) ، وإما إباحة ، كقوله /تعالى/ : ((وكلوا واشربوا [3])) وإما وضعا ، كقوله /تعالى/ : ((الحج أشهر معلومات[4])) .

---

(1) سورة الحج الآية : 75 .

(2) سورة الأنعام . جزء من الآية :152 .

(3) سورة البقرة. جزء من الآية : 185 .

(4) سورة البقرة. جزء من الآية : 195 .

وكل منها وإن كان من قبيل الإنشاء لكنه يتضمن الخبر ، مثلا : ((ولا تقربوا الفواحش)) يستلزم قولنا : عمل الفواحش حرام ، وهو مشتمل على إثبات الحرمة للفواحش وهذا النهي ثبت جبرا لا اختيار للعبد فيه ، كما قال /تعالى/ : ((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم [1])) .

2 — وأما الحكم العادي فهو إثبات الربط بين أمر وأمر وجودا أو عدما بواسطة التكرار على الحس .

والمراد بالأمرين في التعريف الموضوع والمحمول في نحو : " الأكل مشبع " ، فالأكل هو الموضوع ، ومشبع هو المحمول ، فمتي أريد بأحدهما أحدهما أريد بالأخر الآخر وجودا وعدما .

إذن فحقيقة الحكم العادي إدراك النسبة الحكمية الكائنة بين المحمول والموضوع ، أي التصديق بها من جهة وقوعها فتكون القضية موجبة ، أو من حيث عدم وقوعها فتكون القضية سالبة .

وفي التلازم بين السبب والمسبب دار خلاف بين العلماء والمفكرين ، فمنهم من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بطبعها وذاتها ، والتلازم بينهما عقلي ، فلا يجوز التخلف ، وهذا الاعتقاد فاسد ، ناشئ من عدم التمييز والنظر في العقليات ، وصاحب هذا الاعتقاد كافر .

---

(1) سورة الأحزاب . جزء من الآية : 36 .

ومنهم من اعتقد أن الأسباب العادية تؤثر في مسبباتها بقوة أودعها الله فيها ، والتلازم بينهما عادي فيصح التخلف ، وهذا أيضا اعتقاد غير صحيح .

ومنهم من يعتقد أن المؤثر في المسببات العادية / كالإحراق بالنسبة للنار ، والري بالنسبة لشرب الماء ، والشبع بالنسبة للأكل / هو الله تعالى وحده ، إلا أنه يعتقد أن الملازمة بين الأسباب والمسببات عقلية لا يمكن تخلفها ، فمتى وجدت النار وجد الإحراق ، ومتى وجد الأكل وجد الشبع ، ومتى وجد الماء وجد الري ، وهذا الاعتقاد غير صحيح ، وربما يؤول إلى الكفر ، والعياذ بالله /تعالى/ لأنه يلزم عليه إنكار ما خالف العادة ، كمعجزات الرسل/ عليهم الصلاة والسلام/ ومنهم من يعتقد أن المؤثر في المسببات العادية هو الله/تعالى/ وحده ، وأن الملازمة والمقارنة بين الأسباب والمسببات العادية يمكن تخلفها ، بأن يوجد السبب دون وجود المسبب ، كما حصل لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل /عليه الصلاة والسلام / عندما ألقي في النار ، فكانت عليه بردا وسلاما ((قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم [1])) ، وهذا الاعتقاد هو الحق والمنجى عند الله تعالى ، فالملازمة بين السبب والمسبب عادية يمكن تخلفها ، والمؤثر في المسببات العادية هو الله وحده .

---

(1) سورة الأنبياء. الآية : 68 .

3 — وأما الحكم العقلي فهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه من غير توقف على تكرار ولا وضع واضع . وهذا الإثبات أو النفي إما أن يكون على جهة الوجوب أو الجواز أو الاستحالة . إذن فالحكم العقلي لا يخرج عن أحد هذه الثلاثة .

وقد عرف علماء التوحيد الواجب والجائز والمستحيل استغناء عن تعريف الوجوب والجواز والاستحالة ، وذلك لأن الواجب وأخويه مشتق من الوجوب وأخويه ، ومعرفة المشتق تستلزم معرفة المشتق منه .

فقد عرفوا الواجب بأنه مالا يتصور في العقل عدمه . ومعنى ذلك أن الواجب هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء أو الزوال في ذاته ، أي بالنظر لذاته لا لشي آخر .

وينقسم قسمين :

(أ) — ضروري ، وهو مالا يتوقف إدراك وجوبه على فكر ، مثل : التحيز للجرم ، أي أخذه قدر ذاته من الفراغ ، ومثل : صغر الولد عن أبيه .

(ب) — نظري ، وهو ما توقف إدراك وجوبه على نظر واستدلال ، مثل : قدم الإله وعلمه وجميع صفات الكمال .

ومن خواص الواجب أن ذاته تقتضي الوجود ، وما كان من مقتضى الذات فلا يتخلف عنها . وأن ذاته مستغنية عن الغير أي غير محتاج إلى الغير .

والمستحيل هو مالا يتصور في العقل وجوده ، أي الأمر الذي لا يتصور وجوده ، فهو المنتفي الذي لا يقبل الثبوت ، وهو قسمان :

(أ) — ضروري ، وهو مالا يحتاج في إدراك استحالته إلى بحث ، مثل : خلو الجرم عن الحركة والسكون ، أو ثبوتهما له معا .

(ب) — نظري ، وهو ما احتاج في إدراك استحالته إلى فكر واستدلال ، مثل : تعدد الآلهة ، وكذب الرسل وخيانتهم .

وحكم المستحيل لذاته أنه لا يطرأ عليه وجود ، فإن العدم من لوازم ماهيته من حيث هي ، فالمستحيل لا يوجد ، فهو ليس بموجود قطعا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة [1] .

والممكن أو الجائز هو مالا وجود له ولا عدم من ذاته ، فهو أمر قابل في حد ذاته للانتفاء وللثبوت ، وهو قسمان :

(أ) — ضروري ، وهو مالا يتوقف إدراك جوازه أو إمكانه على بحث ، مثل : الحركة والسكون بالنسبة للجسم .

(ب) — نظري ، وهو ما توقف إدراك إمكانه أو جوازه على بحث واستدلال ، كالإحراق عند مماسة النار ، وغير ذلك من كل حكم

---

(1) انظر : محمد عبده. *رسالة التوحيد* ص 5 .

وانظر كذلك : الكردستاني. *تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام* ج1 ص86 .

عادي فإنه جائز عقلي ، لأن العقل إذا تأمل في وحدانية الله تعالى ، وأنه الفاعل المختار المتفرد بالإيجاد والإعدام علم أن الأفعال كلها لله تعالى وحده ، ولا تأثير لما سواه ، خلافا لمن جعلها من الأحكام الواجبة العقلية التي لا يمكن انفكاكها — كما سبق — .

ومن خواص الممكن لذاته أنه لا يوجد إلا بسبب ، ولا ينعدم إلا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين — أي الوجود والعدم — له لذاته فنسبتهما إلي ذاته على السواء ، فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح ، وهذا محال ، ومن أحكامه كذلك أنه إن وجد يكون حادثا ، لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب .

ومن أحكامه أيضا أنه موجود قطعا ، والدليل على ذلك أننا نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد أن كانت موجودة ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات كلها إما أن تكون مستحيلة ، أو واجبة ، أو جائزة ، لا سبيل إلي الأول ، لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ، ولا إلي الثاني لأن الواجب له الوجود من ذاته ، وما كان وجوده من ذاته فلا يزول ، فلا يطرأ عليه العدم ، ولا يسبقه إذن فهي ممكنة الوجود .

المبحث الخامس

المعرفة

المبحث الخامس

المعـرفـة

ما هي المعرفة المطلوبة في العقيدة الإسلامية ؟

المعرفة معناها الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل ، أي الجزم المطابـق لما في نفس الأمـر ، وهو علم الله تعـالى ، وخـرج بـالجزم الظن ، وهو إدراك أحد المتقابلين براجحية ، والوهم وهو إدراك أحدهمـا بمرجوحية ، والشك وهو إدراك كل منهما على السواء .

فإن المتصف بواحد من هذه الثلاثة في شئ من العقـائد لا يحمـل الإيمان الصحيح ، وخرج بالمطابق للواقع غيره كاعتقاد النصارى بـأن الله تعالى ثالث ثلاثة فإن هذا لا يسمى معرفة ، بل هو جهل مركب لتركبة من جهلين : جهل صاحبه بما في الواقع ، وجهله بأنه جاهل لزعمه أنه عالم .

إذن فالمتصف بالظن أو الوهم أو الشك أو غير المطابق للواقع فـي العقائد الإسلامية هو كافر ، لأن الإيمان بالله تعالى لابـد أن يكـون عـن إدراك جازم لا يعتريه أي خلل ينقضه ، ولذلك نرى العلماء اختلفـوا فـي إيمان المقلد ، وهو الذي أخذ بقول الغير من غير دليل [1] .

---

(1) انظر : حسن متولي . منكرة التوحيد ص 15 / 16 .

وليس المطلوب في معرفة الله تعالى إدراك ذاته ، وإنما الغاية من معرفته تعالى معرفة ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، لأن العقول قاصرة عن إدراك حقيقة الذات العلية ، وقد نهانا الشرع الحكيم عن البحث في حقيقتها .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تفكروا في آلاء الله ومخلوقاته ولا تفكروا في ذاته فإنكم لن تقدروا قدره)) [1] ؛ أي إن فكرتم في ذاته فما عظمتموه حق تعظيمه .

فالله جلت قدرته عرف نفسه بنفسه ، ودل الإنسان على أن يعرفه بآلائه ونعمه ، فترك إدراك الذات هو في حد نفسه إدراك ، والبحث عن ذات الله إشراك ، ذلك لأن العقول البشرية لا يمكن لها الوقوف على حقيقة الذات العلية .

وحكم المعرفة الشرعية الوجوب لكنه يكون عينيا في معرفة كل عقيدة ولو بدليلها الإجمالي ، ويكون كفائيا في المعرفة بالدليل التفصيلي [2] ، والدليل علي وجوب المعرفة ما يلي :

---

(1) *رواه أبو نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رفعه : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا خلق الله فمن خلق الله ، فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : ((آمنت بالله)) . انظر كشف الخفاء ج1 ص 3/2 .*

(2) *انظر : الكردستانى مصدر سابق . ج1 ص28 .*

1 ـ قوله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله [1])) أمرنا بالعلم ، وهو لا يكون إلا عن دليل .

2 ـ قوله صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله [2])) فالشهادة ما كانت عن علم ، والعلم لا يكون إلا عن دليل .

3 ـ وقد أجمعت الأمة علي وجوب الإيمان الذي هو المعرفة العلمية ، والإيقان بالدليل والبرهان ، كما أجمعت علي وجوب العبادة بعد معرفة المعبود من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ولا تتصور العبادة إلا بعد معرفة المعبود ، فمعرفة المعبود مقدمة للواجب المجمع عليه فهى واجب مجمع عليه .

أما طريق وجوب المعرفة فهو الشرع ، لأن العقل لا يدرك حسنا ولا قبحا في فعل من الأفعال ، ولا يدرك حكم الله في شئ ، ولولا الشرع لما كنا مكلفين ولا محاسبين علي أي فعل من الأفعال ، إذ قبل ورود الشرع لا حكم أصلا لا أصليا ولا فرعيا .

---

(1) *سورة محمد صلى الله عليه وسلم . جزء من الآية رقم 25 .*

(2) *حديث صحيح رواه ابن عمر . انظر : التاج الجامع للأصول/ منصور ناصف ج1 ص34 .*

والدليل علي ذلك قولــه تعالى : ((وما كنا معذبيــن حتــى نبعــث رسولا [3])) فقد انتفي الوجوب قبل البعثة بنفي لازمــه وهــو العــذاب ، ونفي الوجوب ــ حينئذ ــ يلزمه عدم الوجوب مطلقا بــالعقل ، فتعيــن أن الوجوب بالشرع .

وقوله تعالى أيضا : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقــالوا ربنــا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى [1])).

فقد أفادت هذه الآية أنهم لو اعتذروا في ارتكاب الذنوب بعدم إرسال الرسل إليهم قبل عذرهم ، فلو كان الوجوب عقليا لما قبل منــــهم العــذر لوجود العقل ، ومن هنا نرى أن طريق وجوب المعرفة هو الشرع خلافــا للمعتزلة الذين يقولون إن طريق وجوبها العقل .

فالواجبات ــ كما يقول أهل السنة والجماعة ــ كلها سمعية ، والعقل لا يوجب شيئا ، ولا يقتضي تحسينا أو تقبيحا ، فمعرفة الله /عــز وجــل/ بالعقل تحصل وبالسمع تجب ، كذلك شكر المنعم ، وإثابة المطيع ، وعقــاب

(3) سورة الإسراء الآية رقم 15 .

(1) سورة طه الآية 133 .

العاصي يجب بالسمع دون العقل ، ولا يجــب على الله تعــالى شــئ مــا بالعقل [2] .

(2) تنظر : حسن متولي . مذكرة التوحيد ص19/18 .

المبحث السادس

العقيدة الدينية

المبحث السادس

العقيدة الدينية

** ***تمهيد :***

العقيدة مشتقة من اعتقد ، واعتقد بالشي معناه صدقه وتدين به ، وعقد قلبه وضميره ، والاعتقاد إحكام القلب والضمير علي معنى معين ، وهو التصديق به والثبوت عليه .

وعاطفة التدين أو الاعتقاد بدين ما أمر غرزى مشترك بين الناس في كل زمان ومكان ، فإنه لم تخل جماعة من الناس في أي عصر من عقيدة علي نحو ما .

والعقيدة بالمفهوم العام أنواع متعددة تختلف باختلاف الجوانب للحياة الإنسانية ، وأهم تلك الأنواع جميعا العقيدة الدينية التي يكون لها من التفوق في التأثير والسبق في توحيد الجماعات والأفراد ما يجعلها دائما علي رأس جميع أنواع العقائد المختلفة ، وتكون موضع الاهتمام البالغ من العلماء والمصلحين والمربين .

ويشير المرحوم عباس العقاد إلى أن العقيدة في الإله هي رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها ، من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ، ومن صحة المقاييس التي يقاس

بها الخير والشر ، فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة [1] .

والعقيدة الدينية تتميز عن غيرها من العقائد المختلفة بأمرين :

** *الأول :* أن موضوعها يمثل حقيقة خارجة مستقلة قائمة بذاتها يضفي عليها المتدين لونا من القدسية ، وتقوم الصلة بينها وبين المتدين بها علي أساس الصلة بين ذات هي المتدين ، وذات أخرى هي الشيء المقدس ، أي موضوع الاعتقاد .

** *الثاني :* أن العقيدة الدينية تختص بالإيمان بالغيب ، أي الإيمان بالعالم غير المنظور ، وتؤمن به ، وتعتقد فيه اعتقادا جازما .

ذلك لأن من شأن المتدين أنه يطلب وراء كل حس معنى ، ويلتمس تحت كل ظاهر باطنا ، ويضع في مبدأ كل فعل فاعلا ، جازما أنه لا يقع في الكون كله شئ من دقيق الحوادث وجليلها إلا وللمعبود فيه قصد وتدبير وشأن [2] .

1 ـ *العقيدة الإسلامية* .

من الأمور المقررة أن أساس الإسلام عقيدته ، وجوهر العقيدة فيه الإيمان بوجود الله تعالى بوحدانيته ، وبصفاته العلية ، والإيمان ـ

---

(1) *عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص36 .*

(2) د. *محمد بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص 58- 59.*

كذلك ــ بأنبيائه ورسله وملائكته واليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار ، إذ لا مطمع في تحقيق شي من أحكام الشريعة الإسلامية إن لم تكن المبادئ الاعتقادية مركوزة من قبل ذلك في القلب ، ولا مطمع في ارتكاز شئ من هذه المبادئ فيه إلا بعد الإيمان بوجود الله تعالى .

هذه العقيدة هي أول ما جاءت به دعوة الرسول محمد/ صلى الله عليه وسلم/ وطلب إلي الناس الإيمان بها في المرحلة الأولي من مراحل دعوته ، وجاءت نصوص القرآن الكريم داعية لها موجهة الأنظار إلي اعتناقها ، والأخذ بها .

وهذه العقيدة لم يختلف مضمونها منذ آدم / عليه السلام / إلى بعثة خاتم النبيين والمرسلين محمد/صلى الله عليه وسلم/ ومضمونها الذي تعاقب الأنبياء والرسل كلهم علي الدعوة إليه هو الإيمان بوجود الله / تعالى/ وبوحدانيته ، وتنزيهه عن كل مالا يليق به من صفات النقص ، فكان كل رسول يدعو قومه إلي الاعتقاد بهذه الأمور ، واللاحق منهم يؤكد على دعوة من سبقه ، ويبشر ببعثة من سيأتي بعده من رسل الله/ عليهم الصلاة والسلام / .

يقول الله /تعالى/ : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليه أنه لا إله إلا آنا فاعبدون [1])

---

(1) *سورة الأنبياء : الآية 25 .*

ويقول /تعالى/ : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [1])

فالدين أو الإسلام عند الله واحد غير متعدد ، وكل الأنبياء والمرسلين دينهم الإسلام ، يقول الله /تعالى/ (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين [2]).

إذن الدين الحق الذي هو العقيدة لا يتعدد ولا يختلف ، إذ أن العقيدة مسائلها تكون دائما من قبيل الأخبار ، ولا يتصور للخبر الواحد أن ينقل على أشكال ووجوه عديدة متخالفة ، ثم تكون كلها ــ مع ذلك ــ أخبارا صحيحة إلهية صادقة .

فأخبار الدين الحق لا يمكن أن تكون مختلفة لأنها من عند الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا [3]) .

وعليه فالوحي من عند الله /تعالى/ لأنبيائه ورسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وحي واحد صادق لا يختلف ولا يتعدد ــ فيما يتعلق

---

(1) *سورة الشورى : جزء من الآية 11 .*

(2) *سورة آل عمران الآية 66 .*

(3) *سورة النساء جزء من الآية رقم 81 .*

بالعقيدة ــ لأنها الجوهر والأساس ، أما الذي يمكن أن يختلف ويتعدد فهو التشريع علي اختلاف أنواعه ، فالله الحكيم الخبير جعل لكل أمة من الأمم شريعة ومنهاجا علي ما تقتضيه مصالح العباد الدنيوية والأخروية ، (لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا [1]) .

2 ــ *العقيدة والشريعة في الإسلام* .

يعرف الدين الحق بأنه نظام إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقاد ، والخير في السلوك والمعاملات ، وهو صادر من قبل الله عز وجل ، يبين للناس سبل الرشاد ، ويوضح لهم طريق الاعتقاد ، ويشرح لهم مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات نحو خالقهم ، ونحو أنفسهم ، ونحو المجتمع الذي يعيشون فيه ، ونحو الأمة التي يشرفون بالانتساب إليها ، بل ونحو العالم كله .

((وقد جاء دين الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد صححت فكرة الفلسفة النظرية ، كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين من أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف ، والبديهة الصادقة [2])) .

---

(1) *سورة المائدة. جزء من الآية رقم 50 .*

(2) *عباس العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص36 .*

وسمو العقيدة الإسلامية يرجع إلى أن دين الإسلام هو الدين الحق الذي رضيه الله ــ جلت قدرته ــ للإنسانية كلها ، وأرسل به خاتم أنبيائه ورسله محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نورا ورحمة للعالمين ، وجعل القرآن الكريم كتابه الأول والأخير فرقانا بين الحق والباطل في الاعتقاد والعمل علي حد سواء .

فقد جاء هذا الكتاب بعقائد واضحة سهلة الفهم والإدراك ، وبعبادات تنظم صلة العبد بربه علي نحو لا عسر فيه ولا حرج ، وبأصول محكمة عادلة تقوم عليها المعاملات بين الناس حتى لا يبغي بعضهم علي بعض ، وبأخلاق وآداب سامية تسمو بها نفوس أتباعه ، وبنظم فائقة مفيدة في شئون السلم والحرب والعلاقات الدولية ، وغير ذلك مما لابد منه لصلاح الفرد والمجتمع في كل عصر ومكان ، وهذا كله له أثر بالغ في سرعة انتشار الإسلام ، ونجاح الدعوة الإسلامية .

وعليه فإن الله / تبارك وتعالى/ رضي للناس دين الإسلام ، وجعله دينا متكاملا من كل الجوانب ، وجعل له أصولا وقواعد ثابتة وشريعة سمحة ميسرة .

ومن المسلم به أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأصليان لعقائد الدين ، وللأحكام الواردة في أصول الدين وشرائعه ، فهما قد حويا الأصول والمبادئ الكلية والجزئية لهذا الدين الحنيف .

وقد جرت عادة جمهور الباحثين في العلوم الإسلامية من المسلمين ، وبخاصة علماء التوحيد منهم علي اعتبار أن العقيدة في هذا الدين تمثل الجانب النظري منه ــ إن صح التعبير ــ وأن الشريعة تمثل الجانب التطبيقي فيه .

فالبنية الإسلامية تتكون ــ إذن ــ من العقيدة والشريعة ، فالمعني الإسلامي يتكامل لدى المسلم بالعقيدة الصحيحة ، إذ تستقر في قلبه وبالشريعة يعمل بها ويطبق ما ورد فيها من عبادات ومعاملات وآداب وسلوك ، فالإيمان الصادق هو ما وقر في القلب وصدقه العمل .

غير أن عماد ذلك كله إنما هو العقيدة فهي الأساس الأول الذي لابد منه ، فإن تركزت العقيدة في القلب فإن صاحبها بذلك يكون مؤمنا ، وإن قصر في العمل فيما يتعلق بالشريعة ، غير أنه يكون قد ارتكب إثما بسبب تقصيره يعرضه لعقاب الله /تعالى/ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، أما إذا لم تتوفر العقيدة كاملة في يقينه وإدراكه فإنه لا يكون مسلما حتى لو أفنى عمره كله بالعبادة والطاعة (1) .

ذلك لأن الإنسان الذي لم يعتقد بوجود الله تعالى ، وما جاءت به الرسل- عليه الصلاة والسلام- من الأحكام ، ولم يعتقد بأن محمدا رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين ، هذا الإنسان فقد الأساس الذي تبنى عليه

---

(1) د . محمد البوطي : *كبرى اليقينيات الكونية* ص72 .

جميع الأحكام ، حيث إن تلك العبادات والطاعات جاءت في غير محلها ، وبذلك لا يعتد بها ، وتكون وكأنها غير موجودة ، مصداقا لقوله تعالى : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزؤا [1]).

ثم انظر إلى الآيتين اللتين بعد الآيات السابقة تجد المولي — تبارك وتعالى — قد قرن الإيمان الذي هو العقيدة بالعمل الصالح الذي هو الشريعة ، بقوله تعالى : (إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لا يبغون عنها حولا [2]).

كما يقول الله / تعالى/ : (من عمل صالحا من ذكرا وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون [3]).

ويقول /تبارك وتعالى/ : (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر [4]).

---

(1) سورة الكهف : الآيات : 99 — 101 .

(2) سورة الكهف : الآيتان: 102-103.

(3) سورة النحل : الآية : 97 .

ويقول /تعالى/ : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون [1]) .

من خلال الآيات الكريمة السابقة — وغيرها كثير— تتبين أن العقيدة والشريعة ، أو الإيمان والعمل الصالح (الاستقامة) أمران متلازمان ، أمر الله /تعالى/ عباده بالتمسك بهما والعمل بمقتضاهما ، ولا يكون المرء مسلما حقا يستحق الجنة والرضوان ، وعدم الخوف والحزن ، والحياة الطيبة الهانئة السعيدة إلا إذا آمن بقلبه إيمانا كاملا ، وعمل عملا صالحا يقربه من ربه .

ولا ينافى هذا مع ما ذكر سابقا من أن الإيمان القلبي هو الركيزة وعليه تدور جميع الأعمال الأخرى ، أقول لا ينافي ذلك لأن المؤمن بوجود الله تعالى، وبكل ما جاء به الرسول الأمين محمد/صلى الله عليه وسلم/ هو في الحقيقة مسلم ، وإن قصر في العمل بالصالحات ، وفي الكثير والغالب لا يقصر وبخاصة الذي تركز الإيمان في قلبه كما هو مفروض ، وعلي فرض تقصيره فالله تعالى يقبل توبته ورجوعه إليه ،

---

(4) سورة العصر : كاملة .

(1) سورة الاحقاف : الآيتان 12 — 13 .

ويغفر له ذنوبه إن شاء يقول الله /تعالى/ : (إن الله لا يغفر أن يشرك بـــه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا [1]).

3 ــ الفرق بين العقيدة والشريعة .

إن الأحكام المأخوذة من الشرع قسمان :

أحدهما ما يقصد به نفس الاعتقاد ، كقولنا : الله /تعالى/ عالم قـــادر مريد سميع بصير ، وهذه تسمي اعتقادية وأصلية وعقـــائد ، وهـــذا هـــو موضوع علم التوحيد ، فقد دون هذا العلم لحفظها وبيانها وتفصيلها .

والثاني ما يقصد به العمل ، كقولنا : صلاة العشاء فرض ، وصـــلاة الوتر سنة ، وهذه تسمي عملية وفرعية ، وأحكاما ظاهرية ، وقد دون علم الفقه لبيانها وشرحها [1] .

وبتعبير أوضح أن العقيدة تتعلق بأمر قلبي ، ومثال ذلك :

(الله واجب الوجود) ، (الله واحد) ، (الله متصف بكـل صفـــات الكمـــال) ، (القرآن حق) ، (محمـــد رسول الله) ، (البعـــث حـــق) ، (الجنة والنار والصراط والميزان حق) ، (عذاب القبر ونعيمه حق) .

---

(1) *سورة النساء الآية : 115* .

(1) *انظر : الايجي : المواقف ج1 ص 25* .

فالتصديق بمثل هذه القضايا إنما هو تصديق بأمور اعتقادية إيمانيـــة نظرية تتعلق بالاعتقاد الذي محله القلب ، ودائرته الفكر والنظر .

وأما الشريعة فإنما تتعلق بكيفيات أعمال المكلفين ، ومثال ذلك :

(أكل الطيبات من الرزق حلال) ، (السرقة حـــرام) ، (شـــرب المسكـــرات حرام) ، (الصلاة واجبـــة) ، (صيام رمضان واجـــب) ، (صلاة العيدين سنة) ، ونحو ذلك .

إن الحكـــم في مثل هذه القضايـــا لا يتعلـــق بقلـــوب المكلفيـــن أو اعتقاداتهم ، إنما يتعلق بكيفيات أعمالهم .

فالحكم علي أكـــل الطيبات من الـــرزق بـــالحل ، وعلـــي الســـرقة بالحرمة ، وعلي شرب المسكرات بالحرمة ، وعلي الصـــلاة بـــالوجوب ، وعلي صيام رمضان بالوجوب وعلي صلاة العيدين بالسنية ، إنما هو حكم علي كيفيات لفعل وقع أو يقع من المكلفين بشريعة الإسلام .

وباختصار فإن موضوع العقيدة الإسلامية إنما هو اعتقاد المكلفيـــن ، أما موضوع الشريعة فإنما هو كيفية أعمال المكلفين[1] .

---

(1) د. محمد بيصار : *العقيدة والأخلاق* ص25 .

المبحث السابع

الإيمان والإسلام

المبحث السابع

الإيمان والإسلام

** أولا : الإيمان .

(أ) المعني اللغوي للإيمان :

بالرجوع إلي المعاجم اللغوية نجد أن الإيمان يستعمل عند علماء اللغة في معنيين :

ـ *الأول :* التأمين وإعطاء الأمان ، وبهذا المعني يكون ضد الإخافة ، يقول الله /تعالى/ : (لإيلف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[1]) ويكون بهذا المعني اسما من أسماء الله تعالى ،.

يقول المولي / تبارك وتعالى/ : (السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر[2]) . وذلك لأن الله ــ تقدست أسماؤه ــ أمن الناس من أن يقع عليهم ظلم .

---

(1) سورة قريش : كاملة .

(2) سورة الحشر : جزء من الآية رقم 17 .

— ***الثاني :*** التصديق ، أي اعتقاد الصدق ، ومحله القلب ، يقول الله /تعالى/ (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين [1]) أي بمصدق لنا .

ومن المحققين في اللغة من قال : الإيمان أصله في اللغة هو المعني الأول ، وأما التصديق فإنما سمي إيمانا لأن المتكلم يخاف أن يكذبه السامع ، فإذا صدقه فقد أزال ذلك الخوف عنه ، وعليه سمي التصديق إيمانا [2].

والإيمان من حيث اللغة يتعدى باللام ، كما في قوله /تعالى/ : (وما أنت بمؤمن لنا [3]) ، أي بمصدق لنا ، ويتعدى بالباء ، كما في قوله — عليه الصلاة والسلام — : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره [4]) أي تصدق وتعتقد بقلبك بجميع ما ذكر في الحديث الشريف .

---

(1) *سورة يوسف عليه السلام : جزء من الآية رقم 17 .*

(2) *انظر : الرازى : شرح أسماء الله الحسنى ص189 .*

(3) *سورة يوسف عليه السلام : جزء من الآية رقم 17 .*

(4) *جزء من حديث الإيمان والإسلام وقد رواه الخمسة: انظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول . منصور علي ناصف ج1 ص25 .*

– انظر : الرازى محصل أفكار المتقدمين ص174 ، وكذلك القسطلانى ج1 ص 100 — 101 .

(ب) <u>حقيقة الإيمان الإصطلاحية</u> :

للعلماء في حقيقة الإيمان آراء مختلفة ووجهات نظر متباينة ، نذكر منها ثلاثة فقط ، ولا نتعرض لبقية الآراء الأخرى لأنها قد تكون داخلة في أحد الآراء الثلاثة وهذه هي :

— ***الأول :*** الإيمان هو التصديق القلبي ، وهو رأى جمهور الأشاعرة ، ومن نحا نحوهم .

— ***الثاني :*** الإيمان هو التصديق والإقرار ، وهو رأى الإمام أبي حنيفة — رحمه الله تعالى — ومن وافقه .

— ***الثالث :*** الإيمان هو التصديق والإقرار بالشهادتين والعمل ، وهو رأى الخوارج والمعتزلة والفقهاء والمحدثين [1] .

وهذه الآراء تحتاج إلي البيان والشرح والتفصيل حتى يتضح المراد بكل منها :

---

(1) *أنظر : الرازي محصل أفكار المتقدمين ص. 174 ، وكذلك القسطلاني ج1 ص.100 — 101 .*

** أولا رأي علماء الأشاعرة ومن وافقهم :

الإيمان في نظر هؤلاء هو تصديق نبينا محمد /عليه الصلاة والسلام/ في كل ما علم من الدين بالضرورة ، والمراد بالتصديق الإذعان والرضي والقبول والارتياح النفسي لهذه العقيدة .

يقول الله /تعالى/ : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [1]) .

وعلي هذا لا يكفي وقوع نسبة الصدق من غير إذعان ، ولا رضي وتسليم ، ذلك لأن كثيرا من الناس تحصل لهم معرفة بدون إذعان وتسليم ، فهم غير مؤمنين ، كما حصل من اليهود الذين قال الله /تعالى/ عنهم : (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون [2]) .

ومعنى التصديق بكل ما علم مجيئه من الدين بالضرورة ، أي ما اشتهر وصار العلم به يشبه العلم الضروري لشهرته . ومثال المعلوم من الدين بالضرورة : وحدانية الباري /عز وجل/ وإرسال الرسل ، والملائكة ، ووجوب الصلاة ، وحرمة الزنا ، ونحو ذلك .

---

(1) سورة النساء : الآية 145 .

(2) سورة البقرة : الآية 145 .

ويجب التصديق الإجمالي فيما يعتبر الإجمال فيه ، كالإيمان بأن لله /تعالى/ رسلا مبشرين ومنذرين ، وبأن له ملائكة مطهرين ...الخ .

ويجب التصديق التفصيلي فيما كلفنا بمعرفته تفصيلا ، كالإيمان بالرسل الوارد ذكرهم في القرآن الكريم ، بحيث لو عرض علي المكلف – مثلا – اسم واحد من المذكورين لا ينكره ويصدق به .

أما الإقرار بالشهادتين فهو شرط في إجراء الأحكام الدنيوية علي الإنسان ، لأن التصديق أمر باطني لا يمكن لأحد الإطلاع عليه إلا العالم بما تخفي الصدور / سبحانه وتعالى/ .

إذن فكيف يعرف إيمانه ؟ يعرف ذلك بعلامة تدل علي أنه مؤمن ليعامل معاملة المؤمنين ، كإقراره بالشهادتين نطقا للقادر عليه فمن صدق بقلبه ، ولم يقر بلسانه لا لعذر منه ولا لإباء فهو مؤمن عند الله تعالى غير مؤمن في الأحكام الدنيوية .

** أدلة أصحاب الرأي الأول :

استدل الأشاعرة ومن سار علي نهجهم بأن الإيمان هو التصديق بما يلي :

1 – يقول الله /تعالى/ : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان [1]) .

---

(1) سورة النحل : جزء من الآية رقم 106 .

ويقول /تعالى / : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان [1])

ويقول /تعالى/ : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم [2]).

ومن دعائه / صلى الله عليه وسلم / : (اللهم ثبت قلبي على دينك [3]) .

فهذه النصوص الكريمة تدل دلالة واضحة علي أن محل الإيمان إنما هو القلب ، ولا يحل في القلب إلا التصديق ، أما الأعمال الظاهرة فمحلها الجوارح .

ويؤيد ذلك قوله/ صلى الله عليه وسلم / لأسامة بن زيد ، وقد قتل من قال : لا إله إلا الله (هلا شققت قلبه [4]).

وإذا ثبت أن الإيمان هو فعل القلب وجب أن يكون عبارة عن التصديق الذي من ضرورته المعرفة ، وذلك لأن الشارع الحكيم إنما يخاطب العرب بلغتهم ليفهموا ما هو المقصود بالخطاب ، فلو كان لفظ

---

(1) سورة المجادلة جزء من الآية رقم 22 .

(2) سورة الحجرات جزء من الآية رقم 14 .

(3) سند الإمام احمد ج2 ص 4-8 .

(4) صحيح مسلم كتاب الإيمان الحديث رقم 158 .

الإيمان في الشرع مغيرا عن وضع اللغة لتبين للأمة نقله وتغييره بالتوقيف ، كما تبين نقل الصلاة والزكاة وأمثالهما ، ولا شتهر اشتهار نظائره ، بن كان هو بذلك أولي [1] .

وعلي هذا فقد جاء دليلهم الثاني وهو :

2 ــ أن الإيمان في اللغة هو التصديق ، ولا دليل علي نقله إلي معان أخرى كالإقرار والعمل .

3 ــ أن الكفر ضد الإيمان ، والكفر هو الجحود ، ومحل الجحود القلب فضده وهو الإيمان محله القلب ، لأن الضدين يتواردان علي محل واحد ، وليس فيما ذكر دليل علي إقرار أو عمل ، فالإيمان ــ إذن ــ محله القلب وهو التصديق .

4 ــ يقول الله /تعالى/ : (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان[2]) . تفيد هذه الآية الكريمة أن انعدام الإقرار لا يوجب سلب الإيمان ، وذلك لأن الإقرار ليس داخلا في مفهوم الإيمان .

5 ــ عطف العمل على الإيمان في مثل قوله تعالى : ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس

---

(1) عضد الدين الايجى: المواقف ج2 ص593 .

(2) سورة النحل. جزء من الآية رقم 106 .

نـزلا [(1)]) والعطف بالواو يقتضي المغايرة ، فإذن الإيمان شـئ ، والعمل شئ آخر [(2)] .

6 ــ الأمر بالعمل بعد إثبات الإيمان ، يقول الله /تعـالى/ : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب علي الذين مـن قبلكم لعلكم تتقون [(3)])

7 ــ اجتماع الإيمان مع المعاصي ، يقول الله تعـالى: (الذين أمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم [(4)]) . ووجه الاستدلال بـهذه الآيـة علي أساس أن الظلم المراد به هنا المعصية غير الشرك بالله / تعالى/ .

8 ــ الإيمان شـرط في صحـة الأعمـال ، والشـرط يغـاير المشروط ، يقول الله /تعالى/ (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فـلا كفران لسعيه [(5)]) .

(1) سورة الكهف الآية رقم 102 .

(2) انظر : علم التوحيد. خضر جلال الدين ص119 .

(3) سورة البقرة. الآية رقم 182 .

(4) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 83 .

(5) سورة الأنبياء : جزء من الآية رقم 93 .

9 ــ اقتصار النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في بيان الإيمـان عند سؤال جبريل ــ عليه السلام ــ له عنه علي التصديق دليل علـي أن العمل ليس داخلا في مفهوم الإيمان ، ولو كان العمل أو الإقرار داخلا فـي مفهومه لكان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقصرا في الجواب ، وكـان سؤال جبريل تلبيسا علي الناس في أمر دينهم وكل منهما ــ بكل يقيـن ــ ليس واردا .

** *أدلة أصحاب الرأي الثاني* :

وهو الرأي القائل بأن الإيمان هو التصديق مع الإقرار :

يرى أبو حنيفة –رحمه الله تعالى– أن الإيمان شرعا هو التصديـق مع الإقرار ، فهو اسم لعملي القلب واللسان ، فالإقرار جزء مـن حقيقـة الإيمان ، فمن لم يقر في عمره وهو قادر عليه ، ولو مرة واحدة لم يحكـم بإيمانه لا في الدنيا ولا في الآخرة .

والدليل علي ذلك عنده هو قوله /صلى الله عليه وسلم / : (أمـرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا رسـول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصمـوا منـى دمـاءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علي الله)[(1)] .

(1) مسند الإمام أحمد. جـ4 : 8 .

فقد فهم أبو حنيفة ــ رحمه الله تعالى ــ ومن وافقه من هذا الحديث أن الإقرار داخل في حقيقة الإيمان .

وقد أجاب علماء الأشاعرة عن هذا الحديث بأن معناه أن قول لا إله إلا الله شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا حيث رتب فيه على القول عصمة الدم والمال دون النجاة في الآخرة ، لأنه لا أثر لعمل اللسان في الآخرة ، قال الله /تعالى/ : ((من كفر بالله من بعد إيمانه ألا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)) [1] .

وقال /تعالى/ : ((إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)) [2] . فقد أثبتت هاتان الآيتان ــ ونحوهما ــ أنه لا أثر لعمل اللسان في الآخرة ما لم يكن ناشئا عن العقيدة الصحيحة النابعة من القلب .

** *أدلة أصحاب الرأي الثالث :*

وهو الرأي القائل بأن الإيمان هو التصديق والإقرار بالشهادتين والعمل :

يرى الخوارج أن التصديق والنطق بالشهادتين ، والعمل بالجوارح هي أجزاء للإيمان في مرتبة واحدة ، فمن فقد جزءا منها فهو ليس مؤمنا.

---

(1) *سورة النحل جزء من الآية رقم 106 .*

(2) *سورة النساء الآية رقم 144 .*

وأما المعتزلة فيقولون إن من فقد التصديق أو النطق فهو كافر ، ومن فقد العمل فهو غير مؤمن وغير كافر ، بل في منزلة بين المنزلتين ، وهو مخلد في النار ــ في رأيهم ــ ويسمى فاسقا ، ويفسرون ذلك بأن الإيمان عبارة عن خصال من الخير سمى المرء بسببها مؤمنا ، والفاسق لم يستجمع هذه الخصال فلا يسمى مؤمنا ، وليس بكافر لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه ، لكنه إذا ارتكب كبيرة في الدنيا ومات بدون توبة فهو مخلد في النار ، ولا مانع من إطلاق اسم المسلم عليه تمييزا له عن الذمي [1] .

وقد استدلوا علي ما ذهبوا إليه بما يأتي :

1 ــ الحكم على العاصي بالخلود في النار ، والمؤمن لا يخلد فيها ، لقوله /تعالى/ : ((ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين [2])).

ويقول /تعالى/ ــ أيضا ــ : ((ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما [3])) .

---

(1) *دراسات في الحديث النبوي . السيد محمد الحكيم ص119 ــ 120 .*

(2) *سورة النساء الآية رقم 14 .*

(3) *سورة النساء الآية رقم 92 .*

وقد رد أهل السنة علي الخوارج في استدلالهم بهذه الآيات الكريمة بقولهم : إن المراد من المعصية الشرك بالله /تعالى/ ، والمراد بالقتل استحلاله ، أو المراد من الخلود المكث الطويل في النار .

2 ـ الدليل الثاني عندهم انتفاء الإيمان لوجود المعصية بدليل قوله /صلى الله عليه وسلم/ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن [1]) .

فقد فسروا الحديث بظاهره ، وكفروا مرتكب الكبيرة عامدا عالما بالتحريم ، ولما كان هذا الظاهر معارضا بأحاديث أخري صحيحة ، كالذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة) قال أبو ذر وان زني وان سرق ، قال رسول الله وان زني وان سرق ، قلت وإن زني وإن سرق ، قال وإن زني وإن سرق ، ثم قال في الرابعة علي رغم أنف أبي ذر[2] .

قلت لما كان الظاهر معارضا بمثل ما ذكر من الأحاديث الصحيحة ، أول أهل السنة الحديث الذي استدل به الخوارج بعدة

---

(1) سنن ابن ماجة الفتن :3

(2) صحيح البخاري . الجنائز :1

تأويلات ، منها : أن المراد بالإيمان المنفى الإيمان الكامل ، فلفظ وهو مؤمن مراد منه : وهو كامل الإيمان . ومنها : أن المراد بالإيمان الحياء ، فقد ورد : (الحياء شعبة من الإيمان[1]) من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، والمعنى لا يزني الزاني حين يزني وهو مستحى إذ لو استحيا من الله تعالى حق الحياء ، واعتقد اعتقادا جازما بأنه حاضر مشاهد لحالة لم يرتكب هذا الفعل القبيح .

ومنها : أنه من باب التغليظ والتشديد والزجر ، يعنى أن هذه الخصال ليست من أفعال المؤمنين لأنها منافية لحالهم ، فلا ينبغي أن يتصفوا بها ، بل هي من صفات الكافرين ، كقوله /تعالى/ : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين[2]) أي ومن تشبه بالكفار فلم يحج .

ومنها : أن فاعل ذلك يؤول أمره إلي ذهاب الإيمان ، ويؤيده ما رواه ابن حبان مرفوعا : (إن الخمر لا تجتمع هي والإيمان إلا وأوشك أحدهما أن يخرج صاحبه [3]) . ومنها : أن المراد من فعل ذلك مستحلا له ، أي لا يزني الزاني مستحلا زناه حين

---

(1) *صحيح البخاري . الإيمان : 16 .*

(2) *سورة آل العمران . الآية رقم 97 .*

(3) *المنهل الحديث في شرح الحديث. د . موسى شاهين لاشين جـ4 ص 102 .*

يزني وهو مؤمن[1] .

أما الفقهاء والمحدثون فيرون أن هذه الأجزاء ليست في مرتبة واحدة ، فإذا انعدم التصديق انعدم الإيمان المستتبع للنجاة في الآخرة ، وإذا انعدم الإقرار انعدم الإيمان المبنى عليه الأحكام الدنيوية ، وإذا انعدم العمل انعدم كمال الإيمان ، لأن فقد العمل كفقد اليد من إنسان ، فكما أن اليد لا ينعدم الإنسان بانعدامها ، بل يكون ناقصا لبعض أطرافه فكذلك العمل ، يقول الله / تعالى / : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[2]) .

بالنظر في كل تلك الآراء والتأويلات في مسألة الإيمان وما يتبعه من آثار نرى أن ما ذهب إليه الأشاعرة هو الرأي الأولى والأصوب ، وذلك لأن أدلته قوية ، ومبناه سليم ، وتأويلاته مقبولة ومتمشية مع النقل والعقل .

---

(1) *فتح المنعم شرح صحيح مسلم. د . موسى شاهين لاشين جـ1 ص 337 .*

(2) *سورة المؤمنون. الآيات من رقم 1 ــ 11 .*

وقد استند الإمام الأشعرى ــ رحمه الله تعالى ــ في تفسيره للآيات الكريمة التي استدل بها والتي استدل بها غيره ورد عليها ، قد استند في هذا على رأى علماء اللغة والبيان لأنهم هم الذين يستطيعون تفسيرها على وجهها المطلوب ، إذ أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب .

يقول الأشعرى في باب الكلام في الإيمان : (إن قال قائل : ما الإيمان عندكم بالله تعالى ؟ قيل له : هو التصديق ، وعلى ذلك اجتماع اهل اللغة التى نزل بها القرآن ، قال الله /تعالى/ : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم [1]).

وقال /تعالى/ : (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين [2]).

فلما كان الإيمان في اللغة التي أنزل الله تعالى بها القرآن هو التصديق قال الله /تعالى/ : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين [3]) أي بمصدق لنا ، وقالوا جميعا : (فلان يؤمن بعذاب القبر والشفاعة يريدون : يصدق بذلك) وجب أن يكون الإيمان هو ما كان عند أهل اللغة إيمانا ، وهو التصديق . فإن قال قائل : فحدثونا عن الفاسق من أهل القبلة

---

(1) *سورة إبراهيم جزء من الآية رقم 5 .*

(2) *سورة الشعراء الآيات من رقم 193 ــ 195 .*

(3) *سورة يوسف جزء من الآية رقم 17 .*

أمؤمن هو ؟ قيل له : نعم مؤمن بإيمانه فاسق بفسقه وكبيرته ؛ وقد أجمع أهل اللغة أن من كان منه ضرب فهو ضارب ، ومن كان منه قتل فهو قاتل ، ومن كان منه كفر فهو كافر ، ومن كان منه فسق فهو فاسق ، ومن كان منه تصديق فهو مصدق ، وكذلك من كان منه الإيمان فهو مؤمن ، ولو كان الفاسق لا مؤمنا ولا كافرا لم يكن منه كفر ولا إيمان ، ولكان لا موحدا ولا ملحدا ، ولا وليا ولا عدوا ، فلما استحال ذلك استحال أن يكون الفاسق لا مؤمنا ولا كافرا — كما قالت المعتزلة — .. إلى أن يقول : ومنهم أهل استقامة — ويقصد بذلك أهل السنة والجماعة — يقولون : هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته [1] .

ومن هنا فإن ما ذهب إليه الإمام الأشعرى من تفسير الإيمان بالتصديق يعتبر رأيا صائبا وموفقا إلي حد كبير ، فقد توسط فيه بين آراء متعددة ووجهات نظر مختلفة ، ويرى الأشعرى أن كثيرا من الآراء تتلاقى مع العقل والشرع ، فقد فرق الشرع بين من أقر وقصر ، وبين من جحد وكذب ، فوصف الأول بأنه مؤمن مع تقصيره ، وسمى الثاني كافرا مهما جرى من العمل الصالح على يديه .

فليس من شك في أن قتال المؤمن للمؤمن كبيرة في نظر الشرع ، ومع ذلك فقد سمى الشرع من فعلها مؤمنا ، يقول الله تعالى : (وإن

(1) الأشعرى : كتاب اللمع . ص 123 — 125 .

طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين [1]).

كذلك فإن الشرع الحكيم لم يسو في الحكم بين الكبيرة والإشراك حيث نفى المغفرة عن المشرك وأثبتها لغيره في قوله تعالى — جلت حكمته — : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا [2]) .

وليس المقصود بها الصغائر — قطعا — لأنها مغفورة بدليل قوله تعالى : (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما [3]).

وعلى ذلك فالمؤمن الذي يعصى ربه بترك فرض ، أو ارتكب كبيرة لا يسمى في نظر الشرع كافرا — كما يقول الخوارج — ، ولا يسلب عنه اسم الإيمان — كما يقول المعتزلة — ، ولا يخلد في النار كالكافر ، لأن الله قد فرق بين النوعين حكما .

(1) سورة الحجرات الآية رقم 9 .

(2) سورة النساء الآية رقم 115 .

(3) سورة النساء الآية رقم 31 .

أما منافاة ذلك للعقل فإن جريمة الذنب ليست كجريمة الكفر – قطعا – فإن من يثق بالله /تعالى/ ويتهاون فيما فرضه عليه ، أو يرتكب شيئا حرمه عليه مغلوبا علي أمره بكسله وشهوته ليس مثل الذي كفر بالله /تعالى/ وهزأ برسوله / صلى الله عليه وسلم / ، ففي الأول بصيص النور واحتمال العود إلي الخير ، وفي الثاني ظلمة الكفر ، والعزوف عن الهداية ، مع ما فيه من العتو والاستكبار ، وعدم اليقين بوجود من هو أقوي منه سلطانا ، وأعظم اقتدارا .

وليس من شك في أن رأى المعتزلة والخوارج معا ما يملأ قلوب العباد يأسا وقنوطا ، فإن من قضي حياته طائعا ، ثم هزم عقله ودينه أمام شهوته مرة واحدة ، ولم يجد فرصة للتوبة ، بل مات عقب ذلك مباشرة ، فهو علي رأيهم في النار أبدا ، وليس ذلك هو الدين الذي يملأ القلب رجاء ومغفرة وخوفا وعقابا . يقول الله / تعالى / : (وان ربك لذو مغفرة للناس علي ظلمهم وان ربك لشديد العقاب [1]) .

إن الإمام الاشعرى قد أصاب الحقيقة عندما يقرر أن الإيمان هو الاعتقاد الجازم بكل ما ثبت مجيئه بالضرورة من عند الله / تعالى / علي لسان رسوله / صلى الله عليه وسلم / مع الرضي بهذه العقيدة والتسليم والارتياح لها .

---

(1) سورة الرعد : جزء من الآية رقم 7 .

أما الإقرار باللسان فليس جزءا من الإيمان ، وإن كان ضروريا لإجراء الأحكام الدنيوية .

أما العمل فمن أدى الفرائض ، واجتنب الكبائر وفعل الصغائر فهو من الناجين ، ومن أدى الفرائض وارتكب الكبائر ثم تاب عنها كان من أولئك الذين يتمتعون بعفو الله عنهم . وأما من لم يؤد الفرائض ، أو ارتكب الكبائر ولم يتب فإنما أمره إلي الله/ تعالى/ إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يخلد في النار .

وهذا هو ما يناسب رحمة الله – جلت حكمته – ولطفه بعباده ، ويسر الإسلام وسماحته ، ووسطيته حيث لا تفريط في الواجبات ، ولا إفراط في الشدة . وما يناسب – كذلك – كرم الله لعباده ، فمن شأن الكريم إنجاز الوعد وخلف الوعيد ، والله / تعالى/ هو أكرم الأكرمين .

وقد أورد مؤلف كتاب (أبو الحسن الأشعرى) اعتراضا مفترضا ، ثم أجاب عنه ، يقول : (ولكن أليس لقائل أن يقول : سلمنا بأن الأعمال ليست جزءا من الإيمان لأنه تصديق وإذعان ، ولكننا لا نسلم صدور الأعمال الشريرة من ذلك العبد المؤمن ، فإن الإيمان الحق يستلزم أن نعمل صالحا ، وإلا فأي عاقل يقدم علي المعصية في الوقت الذي يوقن بضررها البالغ حدا كبيرا في الإيلام والشقاوة في الدنيا والآخرة ، فالأعمال ليست جزءا من الإيمان ، ولكنها أثر للإيمان في الخارج ، ودليل

علـى وجـوده في النفس ، ولعل ذلك يقـرب من قـول : (سـقراط [1]) قديمـا (الفضيلة المعرفة) . فإن المعرفة بالفضيلة معرفة يقينية يحمل على إتيانها ، ولا يعرض الإنسان عن عمل ما إلا إذا شك في قيمته أو فائدته ؟! .

وإجابتنا علي هذا الاعتراض ــ الذي لا شـــك فـي وجاهتـه ــ نستلهمها من علم النفس الحديث ، فهو يقول بإمكان تزاحم حالين نفسـيين علي الخاطر يكون أحدهما قويا متسلطا ، ويكون الآخر ضعيفا مغاوبـا ، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير صدور المعصية عن العبد مع وجود الإيمـان فيه فإن الإنسان إذا كان مؤمنا وتعرض لإغراء المعصية فإنه يتزاحم علـي خاطره حالان : الإيمان القديم والرغبة الناشئة عن هذا الإغــراء ، فـإذا غلب الإيمان ارتدت الرغبة الآثمة إلى منطقــة الشـعور غـير الواعـي وانتصرت الفضيلة ، وإذا كان العكس ارتد الإيمان إلي هذا المكـان مـن الإنسان ، وبقيت الشهوة وحدها فتحركه إلي الشر والرذيلة حتى يعـرض للإيمان من القوة ما يدفعه إلي هزيمة الشهوة واحتلال مكانها مـن جديـد فيكف عن هذا الطريق .

---

(1) سقراط فيلسوف يوناني ولد بأثينا عام 469 ق. م وتوفي عام 399 ق . م وكـان يهتم بالمسائل العملية التي تهم الإنسان ، وقد دعا إلى الاتحاد التام بين العمل والفكـر. انظر : د. عوض الله حجازى . في الفلسفة الإسلامية ص43 . وكذلك : حنا الفاخورى وزميله. تاريخ الفلسفة العربية ص 36 /37 .

وإذن فلا مانع من أن يوجد الذنب مع الإيمان , كما يوجـد الفعـل الضار من الإنسان مع إيمانه بضره في بعض الأحيان . ولعل هذا يفسـر قول الرسـول عليه الصلاة والسلام : (لا يزني الزاني حين يزني وهـو مؤمن [1]) الذي تقدم ذكره .

(ج) زيادة الإيمان ونقصه :

للعلماء في هذه المسالة عدة آراء يمكن إجمالها فيما يلي :

ــ *أولا :* يرى الأشاعرة أن الإيمان يزيد وينقص ، فزيادة الطاعـة والمواظبة عليها تزيد الإيمان وتقويه ، ونقصها ينقص الإيمان .

ومعني ذلك أن المؤمن إذا كان تقيا نقيا محافظا علي أوامـر الله / تعالى / مجتنبا لنواهيه ، فإن إيمانه ــ بدون شك ــ سيزيد ويقوى . وأمـا من خالف أوامر الله / تعالى / ، وارتكب المعاصي والذنوب فإن إيمانـه ــ بـدون شك أيضا ــ سينقص ويضعف .

وقد استدل الأشاعرة علي رأيهم هذا بالعقل والنقل :

" *أ* " ــ أما العقل فهو لو لم تتفاوت حقيقـة الإيمـان بالزيـادة والنقصان لكان إيمان آحاد الأمة ــ وبخاصـة منـهم المرتكبيـن للفسـق

---

(1) د. حموده غرابة : أبو الحسن الأشعرى ص 179-180 .

والمعاصي — مساويا لإيمان الأنبياء والأولياء والصالحين لكن التالي — وهو المساواة — باطل ، فالمقدم — وهو عدم التفاوت — باطل ، وثبت المطلوب ، وهو التفاوت في حقيقة الإيمان .

" ب " — وأما النقل فقوله /تعالى/: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا [1]) ، وقوله / تعالى/ : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم [1])

وقوله / تعالى / : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم أيمانا [2]) وقول رسول الله / صلى الله عليه وسلم / : (لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح [3]) فقد دلت الآيات الكريمة ، والحديث النبوي الشريف علي زيادة الإيمان ، وكل ما يقبل الزيادة يقبل النقص علي كل حال .

---

(1) سورة الأنفال : جزء من الآية رقم 2 .

(1) سورة الفتح : جزء من الآية رقم 4 .

(2) سورة آل عمران: جزء من الآية رقم 173 .

(3) مسند الامام احمد. ج4 ص63 .

وقوله / عليه الصلاة والسلام / لابن عمر بن الخطاب — رضي الله عنهما — حين سأله : هل الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه للنار [4])

— *ثانيا :* يذهب الإمام أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — ومن وافقه إلي أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، والدليل على ذلك — عنده — أن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وهذا لا يتصور فيه زيادة ، لأنه ليست هناك درجة أعلى من درجة الجزم والإذعان ، ولا يتصور فيه نقص — كذلك — لأن الجزم إذا نقص كان ظنا أو شكا فينتفي الإيمان .

وقد أجاب أصحاب هذا الرأي عما تمسك به الأشاعرة فقالوا إن الزيادة المفهومة من الآيات الكريمة بحسب ما يؤمن به ، لأن الدين الإسلامي الحنيف لم يتنزل دفعة واحدة ، بل نزل في فترات متعددة ، وكلما نزل شئ من القرآن الكريم آمنوا به .

إذن فالآيات — المستدل بها — تحكى حال الصحابة — رضى الله عنهم جميعا — حين كانوا يتلقون من الرسول / صلى الله عليه وسلم / كل شئ يأتي به الوحي .

---

(4) صحيح البخارى : الايمان : 33 .

وأما الزيادة المفهومة من الحديث الشريف فالمراد من الإيمان فيه هو العمل ، وقد أطلق الله الإيمان على العمل في قوله / تعالى / : ((وما كان الله ليضيع إيمانكم))[1] .

ـ **ثالثا :** ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن جماعة من العلماء أن الخلاف في هذه المسألة لفظي لا حقيقي ، لأن من يقول بالتفاوت قصد التفاوت في الإيمان بحسب ما به كماله ، وهو الأعمال ؛ ومن قال بعدم التفاوت قصد أصل الإيمان وهو التصديق[2] .

والأجدر بالقبول هو أن الخلاف بين العلماء في هذه المسألة حقيقي وليس لفظي ، وأن الأرجح من تلك الآراء هو الرأي الأول ، أي رأى الأشاعرة الذي يقول بالزيادة والنقص ، سواء أكان الإيمان اسما للتصديق فقط ، أم اسما للتصديق مع العمل ، وأن الزيادة والنقص يقعان في الأعمال وفي التصديق .

أما الأعمال فالأمر فيها واضح ، ولا يحتاج إلى كثرة بيان ، إذ أن الإيمان يزيد بكثرة الطاعات ، وينقص بالمعاصي والآثام ، وأما في التصديق فكما استدل به أصحاب الرأي الأول ، ويمكن تصور الزيادة والنقص في التصديق من جهات ثلاث :

---

[1] سورة البقرة : جزء من الآية رقم 33 .

[2] انظر : الرازي. محصل أفكار المتقدمين ص 175 .

" أ " ـ من جهة وسيلته ، وهي الأدلة التي يستدل بها على صحة المعتقد ووجوب التصديق به .

" ب " ـ من جهة متعلقه وموضوعه ، وهو المصدق به أو المعتقد فيه .

" ج " ـ من جهة ثمرته ، وهي العمل .

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا – قبل الدخول في شرح هذه الجهات الثلاث –هو أن المقصود بقبول الإيمان للنقص – في رأي من يقول به – أنه لا ينقص عن حد أدني هو القدر الذي لابد منه في تحقق أصل الإيمان ، وإنما المقصود هو النقص من الزيادة ، لا النقص من القدر الضروري لتحقق إيمان المؤمن .

نعود لشرح تلك الجهات الثلاث ، فنقول : من المعلوم أنه كلما كان الدليل أوضح حجية ، وأقرب إلى البديهة ، وأبعد عن الشبهة ، وكلما كثرت الشواهد وتعددت البراهين كان المعتقد أشد رسوخا في النفس ، وأعمق أثرا في القلب ، وأكثر إقناعا للعقل .

وكلما تحقق ذلك كان الإيمان أقوى وأرسخ ، وأقدر على مقاومة الهزات النفسية ، والصمود أمام المشاكل المثارة .

ويشهد لذلك قوله / تعالى/ : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي [1]). واطمئنان القلب معناه سكونه وهدوؤه .

ومحل الشاهد في الآية هو النظر لتقوية الإيمان ، فإبراهيم الخليل / عليه الصلاة والسلام / مؤمن بالله ومصدق بإحياء الله الموتى ، ولكن أراد أن يشاهد ذلك بعينه ، لأن النظر أقوى وأصدق برهانا من السمع ، ومن سمع شيئا ويمكنه أن يراه لاشك أنه يبقى متشوقا لرؤيته فإذا شاهده بعينه اطمأن له قلبه وآمن به ، فلا يطلب بعد ذلك البيان بيانا [2].

هذا فيما يتعلق بجهة الدليل ، أما من جهة الموضوع ، وهي القضايا المصدق بها فقد يقع التصديق بهذه القضايا على وجه إجمالي ، وقد يقع على وجه تفصيلي .

ولاشك أنه إذا وقع على وجه تفصيلي يكون أزيد وأرسخ وأشد يقينا من الإيمان به مجملا .

وتستطيع أن تقارن بين تصديقين :

أحدهما التصديق برسالة سيدنا محمد / عليه الصلاة والسلام / لمجرد العلم بأمانته فيما يبلغ عن ربه ، وقيام المعجزة الدالة على صدقه .

---

(1) سورة البقرة: جزء من الآية رقم 259 .

(2) انظر : ابن باديس. العقائد الإسلامية ص 58 .

وثانيهما التصديق برسالة سيدنا محمد / عليه الصلاة والسلام / لهذه الشواهد ، وللوقوف فوق ذلك علي تفاصيل رسالته ، والعلم بمبادئها ، وبيان ما بها من سمو وتفوق .

بهذه المقارنة ــ بين الإجمال والتفصيل ــ يتبين لك أن النوع الثاني من التصديق أكثر يقينا لما فيه من كثرة المعلومات ، وزيادة البيان حتى صار أكثر وضوحا وأبعد عن الشبهة . وبهذا تعلم أن هذا النوع فيه زيادة عن التصديق الأول بكل تأكيد .

أما من جهة ثمرة الإيمان التي هي العمل ، فإن العقيدة التي يقارنها العمل والطاعة والخلق الطيب دائما تكون في ازدياد ومواظبة على فعل الخير ، والعكس صحيح بالنسبة للعقيدة التي تهاون الإنسان بمقتضاها فإنها تكون في نقصان مستمر. فالاعتقاد ــ إذن ــ يخبو ويطمس بالمعصية شيئا فشيئا ، ولكنه بالطاعة والمواظبة على العبادة يزكو وينمو[1] .

يقول الإمام الغزالي : (إن المواظبة على الطاعات لها تأثير في تأكيد طمأنينة النفس إلى الاعتقاد التقليدي ورسوخه في النفس ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من سبر " يعني اختبر " أحوال نفسه وراقبها في وقت المواظبة علي الطاعة وفي وقت الفترة ، ولاحظ تفاوت الحال في باطنه فإنه يزداد – بسبب المواظبة علي العمل – أنسه لمعتقداته ويتأكد به طمأنينته .. إلي أن يقول : فإن من يعتقد الرحمة في قلبه علي يتيم فإن

---

(1) انظر : د. محمد بيصار. العقيدة والأخلاق. ص 91-93 .

أقدم علي مسح رأسه وتفقد أمره صادف في قلبه عنـــد ممارســة العمــل بموجب الرحمة زيادة تأكيد في الرحمة ... وكذلك تعبدنا (أي الله تعــالى) بالمواظبة على أفعال هي مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب [1] .

ثم إن الغزالى يقسم الإيمان إلى ثلاث مراتب ، هي :

1 ـــ إيمان العوام ، وهو المبنى على التقليد المحض ، ويســـميه التصديق التقليدي .

2 ـــ إيمان المتكلمين ، ويطلق عليه التصديق البرهاني .

3 ـــ إيمان العارفين ، وهو المشاهدة بنور اليقين ، ويسميه العمل مع التصديق .

ويمثل الغزالى للنوع الأول بإيمان من يسمع أن فـــي الـــدار رجـــلا فيصدق بوجوده ، وللثاني بمن يسمع صوت الرجل فيصدق به ، وللثـــالث بمن يدخل الدار ويري الرجل بعينيه .

والمرتبة الأولى يمكن فيها خطأ المؤمنين فيمـــا ســـمعوه ، ولـــهذا يضعهم الغزالى في أول مراتب أصحاب اليمين وليسوا مـــن المقربيـــن ،

---

(1) *الغزالى : الاقتصاد في الاعتقاد. ص 115* .

كذلك المرتبة الثانية . أما المرتبة الثالثة فلا يمكن فيـــها الخطـــأ بحـــال ، وتعتبر معرفة حقيقية ومشاهدة يقينيـــة ، فـــهي تشـــبه معرفـــة المقربيـــن والصديقين .

أما الإيمان الذي يعتبر في أعلي المراتب ـــ في نظـــر الغزالـــي ـــ فطريقه يختلف عما سبقه من الطرق الأخرى ، إنه طريق التصوف فـــهو طريق اليقين والوثوق لمعرفة الحقائق الإلهية [1] .

---

(1) *الغزالى : إحياء علوم الدين . جـ3 ص 14* .

** ثانيا: الإسلام .

(أ) المعني اللغوي للإسلام :

لفظ (إسلام) مصدر للفعل : (أسلم) ومادته : (سلم) .

وأول ما يتبادر إلي الذهن من معني كلمة : (إســلام) أنــه الديــن الحق الذي جاء به محمد بن عبد الله النبي العربي الهاشمي ــ صلــوات الله وسلامه عليه ــ من عند الله / عز وجل / وقد بلغه للناس كافـــة ، وهــو الدين الخاتم لجميع الأديان الذي عرف باسم الإسلام منـــذ عــهده الأول ، فالإسلام علم بالغلبة علي مجموع الدين الذي جاء به سيد المرسلين / صلى الله عليه وسلم / .

ولقب الإسلام أولي بالإطــلاق علي هذا الدين الخـــاتم مــن لقــب الإيمان ، لأن الإسلام هو المظهر البين لمتابعة الرسول فيما جاء به مـــن الحق ، وإطراح كل حائل يحول دون ذلــك بخلاف الإيمان فإنــه اعتقــاد قلبي [1] .

وقد سمي الله / تعالى / هذه الأمة المحمدية المسلمين في كل الكتــب السماوية السابقة ، وفي القرآن الكريم في قوله / تعالى / : (هــو ســماكم

---

[1] انظر : ابن عاشور التحرير والتنوير ج3 ص 189 .

المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء علي الناس[1]) .

والإسلام يعني السلام، وجاء هذا الأخير في اللغة علي معان كثيرة ، منها أنه اسم من أسماء الله / تعالى / والسلام تحية الإسلام ، ومعناه السلامة ، فإذا قال المسلم : السلام عليكم فكأنه أخبر غيره بالسلامة من جانبه ، ويؤمنه من شره ومن غائلته .

يقول الله / تعالى / في حق يحي عليه السلام : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا[2]) .

وكان سفيان بن عيينة ــ رحمه الله تعالى ــ يقول : أوحش ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن : يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ، ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم .

فأكرم الله نبيه يحي / عليه السلام / في هذه المواضع الثلاثة ، وخصه بالسلامة من آفاتها ، وسلمه من شرها ، وأمّنه من خوفها[3] .

---

(1) *سورة الحج : جزء من الآية رقم 76 .*

(2) *سورة مريم عليها السلام : الآية رقم 14 .*

(3) *الرازى : شرح أسماء الله الحسنى. ص187 .*

وقد عنى المتكلمون والمفسرون واللغويون وغيرهم من الباحثين برد المعنى الشرعي للفظ : (إسلام) إلي أصله اللغوي ؛ فقد جمع فخر الدين الرازى في تفسيره لقوله / تعالى / : (إن الدين عند الله الإسلام[1]) جملة من الآراء في ذلك فقال : (وأما الإسلام ففي معناه في أصل اللغة ثلاثة أوجه :

الأول أنه عبارة عن الدخول في السلم ، أي في الانقياد والمتابعة ، قال / تعالى / : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا[2]) ، أي لمن صار منقادا لكم ومتابعا لكم .

والثاني من أسلم ، أي دخل في السلم ، كقولهم أسنى وأقحط ، وأصل السلم السلامة .

والثالث : قال ابن الأنبارى : المسلم معناه المخلص لله عبادته من قولهم سلم الشيء لفلان ، أي خلص له . فالإسلام معناه : إخلاص الدين والعقيدة لله / تعالى /[3] .

---

(1) *سورة آل العمران : جزء من الآية رقم 19 .*

(2) *سورة النساء : جزء من الآية رقم 93 .*

(3) *الرازى : التفسير الكبير جـ2 ص 417 ، وانظر الزمخشرى / الكشاف جـ1 ص 228 .*

فالإســـلام يأتي بمعنى الخضوع والاستسلام ، وإخــــلاص العبادة لله / تعالى / والانقياد الشامل : الظاهري والباطني .

و لعل هذا المعنى هو ما يرشد إليه قوله / تعالى/ : (ومن أحســـن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفـــا واتخــذ الله إبراهيم خليلا [1]) ؛

وذلك لأن دين الإسلام مبنى على أمرين : الاعتقاد والعمل .

أما الاعتقاد فإليه الإشارة بقوله : (أسلم وجهه) حيث إن الإســـلام هو الانقياد والخضوع ، والوجه أحسن أعضاء الإنســـان ؛ فالإنســـان إذا عرف بقلبه ربه ، وأقر بربوبيته ، وبعبودية نفسه فقد أسلم وجهه لله .

وأما العمل فإليه الإشارة بقوله : (وهو محسن) ، ويدخل فيه فعـــل الحسنات وترك السيئات [2] .

وفي تفسير قوله / تعالى / : (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في الســـلم كافة [2]) يشير القرطبي ــ رحمه الله تعالى ــ إلي أن المراد بالسلم فـــي

---

[1] سورة النساء : الآية رقم 124 .

[2] الرازي : التفسير الكبير جـ3 ص 325 .

[2] سورة البقرة : جزء من الآية رقم 206 .

الآية الكريمة هو الإسلام ، إذ يقول : ((أي كونوا علـــى ملـــة واحـــدة ، واجتمعوا على الإسلام واثبتوا عليه ، ومنه قول الشاعر الكندي :

دعوت عشيرتي للسلم لما ... رأيتهم تولوا مد برينا ... [1]

(ب) المعني الشرعي للإسلام وعلاقته بالإيمان :

أما من حيث حقيقة الإسلام الشرعية فإن كثيرا من العلماء يـــرى أن الإسلام هو الامتثال الظاهري لما جاء به النبي / صلى الله عليه وســـلم / ، أي الإذعان للأوامر والنواهي ، سواء أعمل بها أم لم يعمل .

ويتحقـــق هذا الانقياد بالنطـــق بالشهادتيـــن ، أما غيـــره كـــالصلاة ــ مثلا ــ فاعتراف المكلف بوجوبها عند الســـؤال عـــن حكمـــها يحقـــق الامتثال والإسلام .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الإسلام هو التصديـــق البـــاطني ، واستدلوا على ذلك بقوله / تعالى / : (أفمن شرح الله صدره للإسلام فـــهو على نور من ربه [2]) .

وعلى هذا فالنطق دليل عليه ، والأعمال كمال له .

---

[1] القرطبي : جامع أحكام القرآن جـ3 ص 22 .

[2] سورة الزمر : جزء من الآية رقم 21 .

ومن هنا فإن علاقة الإسلام بالإيمان باعتبار حقيقتهما اللغوية بينهما اختلاف في المفهوم ، أي بينهما عموم وخصوص مطلق يجتمعان في المصدق بقلبه فهو مسلم لغة ومؤمن لغة ، وينفرد الأعم وهو الإسلام فيمن انقاد ظاهرا .

وباعتبار حقيقتهما الشرعية على الرأي الأول هما متغايران مفهوما (أي معنى) وذاتا (أي ما صدقا) لأن التصديقات الباطنية تغاير الامتثالات الظاهرية ؛ ومتلازمان شرعا باعتبار المحل بعد اتحاد الجهة المعتبرة ، أي إذا قصد الإيمان المنجى في الدنيا وفي الآخرة ، فلا يوجد مسلم ليس بمؤمن ، ولا مؤمن ليس بمسلم .

أما إذا نظرنا إلى مطلق الإيمان ومطلق الإسلام فلا تلازم بينهما ، بل بينهما العموم والخصوص الوجهي ــ باعتبار محلها ــ يجتمعان فيمن صدق بقلبه وانقاد ظاهرا ، وينفرد الإيمان في المصدق بقلبه فقط ، وينفرد الإسلام في المنافق[1] .

وأما باعتبار حقيقتهما الشرعية عند أصحاب الرأي الآخر فهما مترادفان في عرف الشرع . وهذا ما سار عليه الإمام الرازى ، واستدل عليه بدليلين :

---

(1) انظر : السيد محمد الحكيم. دراسات فى الحديث النبوي ص 116 وما بعدها .
وانظر كذلك : د. موسى شاهين. فتح المنعم شرح صحيح مسلم جـ1 ص 39 .
وانظر كذلك : حسن السيد متولي . منكرة التوحيد ص 35 ــ 36 .

الأول قوله / تعالى / : (إن الدين عند الله الإسلام[2]) ، فهو يقتضي أن يكون الدين المقبول عند الله ليس إلا الإسلام ، فلو كان الإيمان غير الإسلام وجب أن لا يكون الإيمان دينا مقبولا عند الله تعالى ؛ ولا شك في أنه باطل .

الثاني قوله / تعالى / : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه[1]) . فلو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان دينا مقبولا عند الله تعالى ، وهذا أيضا باطل[2] .

ويرى الإمام الغزالى أن الإسلام يطلق شرعا على ثلاث معان :

الأول إطلاق الإسلام بمعنى الاستسلام ظاهرا باللسان والجوارح مع إطلاق الإيمان على التصديق بالقلب فقط ؛ وعلى هذا فالإسلام والإيمان مختلفان .

الثاني أن يكون الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعا ، ويكون الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب ؛ وعلى هذا فالإسلام أعم من الإيمان .

---

(2) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 19 .
(1) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 84 .
(2) الرازى : التفسير الكبير جـ2 ص 417 .

الثالث أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعــا ، وكذا الإيمان ، وعليه فالإسلام والإيمان مترادفان .

ويظهر أثر هذا التحقيق في مسألة مهمة من مسائل علم التوحيــــد ، وهى حكم من ارتكب كبيرة في الإسلام .

وقد تقدم بيان ذلك في مسألة الإيمان ، وأن جمـــــهور أهــل الســنة والجماعة لا يخرجون مرتكب الكبيرة عن دائرة الإسلام والإيمان ، بل هـو مؤمن عاص ، وأمره مفوض إلي ربه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنـــه ، ولا يخلد في النار ، وهذا فضل ورحمة من الله / تعالى / .

المبحث الثامن

العقائد التي يجب الإيمان بها

المبحث الثامن

العقائد التي يجب الإيمان بها

علم مما سبق أن الإسلام عقيدة وشريعة ، ومن مجموعهما يتحقق الإسلام . وقد جعل الإسلام مفتاح الإيمان النطق بالشهادة التي يدخل الإنسان الناطق بها دين الإسلام الحق . وهذه الشهادة التي تصدر عن الإنسان عن جزم ويقين هي :

(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) ؛

فهي مكونة من جزئين مكملين لبعضهما لا يمكن انفصالهما ، ولا يغنى أحدهما عن الآخر .

إن هذه الشهادة عنوان لتحقق جملة العقائد الإسلامية في قلب المسلم ، وهى تعبير صادق عما في نفسه عن إدراك واضح ودليل قاطع .

فبالجزء الأول من الشهادة يقر ويعترف اعترافا كاملا أنه لا معبود بحق إلا الله الواجب الوجود الواحد المتفرد بالخلق والتدبير ، لا يشاركه في خلقه وسلطانه وعزته أحد ، وأنه / جل شأنه / الفعال لما يريد المتصف بكل صفات الكمال والجلال الذي لا يشبه شيئا من خلقه ، ولا يشبهه شيء من خلقه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [1]) ، (قل

---

(1) سورة الشورى : الآية 11 .

هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد [1]) .

وبالجزء الثاني من الشهادة يؤمن إيمانا كاملا عن إذعان ويقين بأحقية رسالة سيدنا محمد / صلى الله عليه وسلم / ، وبصدق كل ما جاء به من عقائد وأحكام .

فالإقرار بوحدانية الله / تعالى / يقتضي كمال الاعتقاد فيه ـ جلت قدرته ـ بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، لا إله غيره ولا معبود بحق سواه .

أما الإيمان بأحقية رسالة محمد / صلى الله عليه وسلم / فإنه يقتضي كمال الاعتقاد في أحقية القرآن الكريم وأنه من عند الله / تعالى / ، والتصديق بكل ما جاء فيه وأخبر عنه من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ، وملائكته وكتبه واليوم الآخر .

يقول الله / تعالى / : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير [2]) .

ويقول / جل شأنه / : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب

---

(1) *سورة الإخلاص : كاملة .*

(2) *سورة البقرة : الآية 284 .*

والنبيئين [1]) .

ويقول / عليه الصلاة والسلام / : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة علي ما كان عليه من عمل [2]) .

وقد روى عن رسول الله / صلى الله عليه وسلم / أنه قال : (بني الإسلام علي خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت [3]) .

فأول أركان الإسلام وأعظمها شأنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله / صلى الله عليه وسلم / وهي كلمة خفيفة علي اللسان ثقيلة في الميزان ، ألفاظها قليلة ومعناها سام عظيم ، وهو الاعتراف لله / تعالى / بالوحدانية ، والإقرار لمحمد / صلى الله عليه وسلم / بالنبوة والرسالة ، ويتضمن ذلك التصديق بجميع الأنبياء والإيمان بكافة المرسلين .

---

(1) *سورة البقرة : جزء من الآية رقم 176 .*

(2) حديث *متفق عليه: انظر: التاج الجامع للأصول /محمد ناصف/ ج1 ص 31/30 .*

(3) حديث *متفق عليه رواه البخارى في كتابه الجامع الصحيح أول كتاب الإيمان انظر: السيد محمد الحكيم دراسات في الحديث النبوي ص93 .*

وعليه فإن كل من شهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمـدا رسـول الله مخلصا بها من قلبه فإنه يكـون بذلك قد دخـل في دائـرة الإيمـان بـالله / تعالى / وبرسوله / صلى الله عليه وسلم / ويستحق عفو الله ورضوانـه بناء علي أن الإيمان هو التصديق القلبي بالله / تعالى/ وبرسـوله / صلـى الله عليه وسلم / وأن بقيـة الأعمال الظاهرة ليست شطـرا من الإيمـان ــ كما تقدم في مبحث الإيمان ــ .

ولكن كيف نفسر قول الرسول / صلى الله عليه وسلم / في حديـث أركان الإسلام المتقدم ذكره ؟ والجواب عن ذلك هو أن بعـض فرائـض الإسلام وعباداته التي ذكرت في هذا الحديث الصحيح أو في غـيره قـد ألحقت بأصل الاعتقاد وأساسه الأول ، أعني الشهادة ، وقرنـت بـه فـي وجوب اعتقادها والعمل بها لا لأنها أمور اعتقاديه داخلة في أصل العقيـدة وجوهرها ، وإنما ذكرت هذه الأمور بعينها لما فيها من المعاني الجليلة مـا ليس في غيرها ومن ذلك :

أولا أنها تعد من أعظم مظاهر الإيمان بعقيدة الإسلام ، وأوضـح عناوينه لما يتمثل فيها من استسلام المؤمن وانقياده الظاهري التام لله /عـز وجل / في كل ما أمر ونهي .

ثانيا أن هذه الفرائض قد جمعت مع الركـن الأساسـي – وهـو الشهادة – ضروب الابتلاء والاختبار في الأبـدان والأمـوال والأقـوال والأفعال والتروك لتكون في مجموعها نموذجا لسائر التكاليف ، وليكـون

العمل بها دليلا وبرهانا علي امتثال المؤمن لكافة المأمورات واجتناب كافـة المنهيات (1) .

ومن هنا فإن ما وردفي هذا الحديث أو غـيره لا يتنـافى مـع أن الإيمان هو التصديق القلبي بالله تعالى وبرسوله / صلى الله عليه وسلم / .

وعليه فإن أصول العقيدة الإسلامية التي أوجب الإسلام علي المسـلم معرفتها والإيمان بها كي تكتب له السعادة في الدنيا والآخرة ثلاثة أصـول هي :

1 ــ معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، والإيمان بكل ما يتعلـق بذلك ؛ وتسمى الأمور المتعلقة بالله وصفاته : (الإلهيات) .

2 ــ معرفـة ما يتعلق بالأنبيـاء والرسـل ــ عليـهم الصـلاة والسلام ــ من حيث الإيمان بهم, وما جاءوا به من تشـريعات وأحكـام ، والإيمان كذلك بالكتب السماوية ، ويطلق علي جملة الأمور المتعلقة بذلـك اسم : (النبوات) .

3 ــ الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقـاب ، وجنـة ونار ، وكذلك الإيمان بعذاب القبر ونعيمه ، وبكل ما يتصل بذلك ؛ ويطلق علي المباحث المتعلقة بمثل ذلك اسم : (السمعيات) أو (الغيبيات) .

---

(1) *انظر : د. محمد بيصار. العقيدة والشريعة ص 98* .

وحديثنا ينحصر في هذه المباحث في قسم : (الإلهيات) ؛ أما فيما يتعلق بالقسمين الآخرين فسوف نفرد لهما دراسة خاصة في قسم مستقل إن شاء الله تعالى ، وسهّل ويسّر .

المبحث التاسع

الألوهية في الإسلام

المبحث التاسع

الألوهية في الإسلام

تعتبر قضية الألوهية من المسائل الكبرى في الفكر الإسلامي والإنساني علي وجه العموم ، عالجها الإنسان أولا علي الفطرة ثم أخذ يتعمق فيها ويفلسفها .

ومن المعلوم أن الجزيرة العربية في الجاهلية كانت تموج بديانات مختلفة من مزدكية ومانوية ويهودية ونصرانية ، فظهرت المزدكية في تميم ، واليهودية في يثرب وخيبر ، والنصرانية في غسان ، ولكن الديانة السائدة والأكثر انتشارا في الجزيرة العربية كانت عبادة الأصنام والأوثان من تماثيل ونصب يحجون ويتقربون إليها ، ويقدمون لها الذبائح والقرابين (1) .

غير أن هناك من العرب قبل الإسلام من يعتقد في الله /تعالى/ ، ويؤمن بالحياة بعد الموت ، وبالجزاء في الدار الآخرة ، ومن هؤلاء : زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : (أيها الناس هلموا إلي فإنه لم يبق علي دين إبراهيم غيري) ، ومنهم : قس بن ساعدة الإيادى ، وكان يقول : (هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد ، أعاد

---

(1) *انظر : الجانب الإلهى عند ابن سينا للمؤلف ص 21 .*

وأبدى وإليه المآب غدا) ، ومنهم : عامر بن الظرب العدواني ، وكان يقول : (إني ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ، ولا جائيا إلا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء [1]) .

ومع وجود هذا النفر الذين اتبعوا الحنيفية أي دين إبراهيم الخليل – عليه الصلاة والسلام – فإن الغالبية من العرب – آنذاك – كانوا يعتقدون في آلهتهم النفع والضر ، وكانت فكرة الألوهية عندهم مادية مجسمة ومشخصة حتى جاء الإسلام ، وجهر النبي /صلى الله عليه وسلم/ بالدعوة ، فقضي علي تلك الوثنية ، وحطم الأصنام والأوثان ، ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ، فأكمل الله / تعالى / بدعوته للناس دينهم ، وأتم عليهم نعمته .

ونزل القرآن الكريم على محمد /صلى الله عليه وسلم/ بلغة العرب ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، وأول ما نزل من القرآن الكريم – بإجماع المفسرين – قوله / تعالى / : (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم [2]) ، ففي هذه الآيات الكريمة دعوة إلى معرفة الله / تعالى / الذي خلق ، وفيها ذكر للمخلوق – كذلك – ، فذكر الخالق وما

---

(1) الشهرستاني : الملل والنحل ج 3 ص 295 .

(2) سورة العلق . الآيات : 1 – 5 .

خلق – هنا – هو تحديد للموضوع الذي من أجله كان توجيه النظر إلى المخلوقات ، والوقوف على ما في صورها وألوانها وأشكالها من عجائب وأسرار، فإذا ما ظهرت لعين الناظر المتأمل تنبه إلى الخالق الذي خلق .

(وقد أضفي القرآن الكريم على حقيقة الذات الأقدس من الصفات ، وأضاف إليها من النعوت ما يميزها عن سائر أنواع الموجودات ، ويجعلها في متناول الإدراكات الإنسانية ، وفي دائرة ما يعرف بالعقل والوجدان ، بل ويجعلها أجلي ما يعرف ، وأجل ما يعلم لذوى الفطر السليمة والعقول المستقيمة والوجدانات الراقية [1]) .

فقد وصف القرآن الكريم الله / تعالى / بما يليق بكماله من صفات ، وصفه بأنه واحد ، وأنه موجود ، وأنه قادر ، وأنه مريد إلى غيرها من الصفات التي تليق بالخالق الذي خلق – باعتباره موجدا ومنشأ .

وبهذا ميز القرآن الكريم المعني الحقيقي للفظ الجلالة : (الله) وحده للناظرين .

وهكذا كان القرآن الكريم – ولا يزال – في كل مناهجه فيما يتصل بالعقيدة الإلهية ، فلقد اتخذ أعدل الطرق وأوضحها ، وأكثرها فعالية في الوصول إلى الغاية التي قصد إليها من الدعوة إلى الله ، وتثبيت الإيمان بوجوده – جل وعلا – ولم يشأ القرآن الكريم أن يغرق الناس في لجج

---

(1) د. محمد بيصار : العقيدة والأخلاق ص 102 .

من الجدل الفلسفي ، وفي تصوزات من المنطق السقيم الذي لا يلد إلا خيالات وأوهاما ، ولا ينتهي إلا إلى ظنون يضرب بعضها وجوه بعض .

لقد سلك الفلاسفة طريق البحث عن الله تعالى فأضنوا عقولهم وأمرضوا قلوبهم ولم يصلوا إلى غاية يستريح إليها عقل أو يطمئن لها قلب .

وفي تاريخ الفكر شواهد كثيرة ، ومواقف مثيرة لهذا الصراع الذهني الذي أنفق المفكرون فيه حياتهم باحثين عن الحقيقة في الله ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما الوجود ؟ ومن أين جاء ؟ وإلى أين ينتهي ؟ وما صلة الوجود بالله ؟ ...الخ .

وكانت خاتمة المطاف عجزا وحيرة وقلقا وتخبطا وضلالا . والسبب في ذلك أنهم حملوا أنفسهم فوق طاقاتها ، وساقوا عقولهم إلى ما وراء حدودها التي يجب أن تقف عندها .

ولكن شريعة القرآن الكريم غير هذا إنها تجئ للناس كما تعرفهم ، إنهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ....

من أجل هذا لم تفتح شريعة القرآن الكريم بابا للجدل في الله ، ولم تستمع إلى الذين يدعونها إلى الخصومة في الله ، بل قطعت عليهم

الطريق ، وفوتت عليهم ما يرمون إليه من صرف الدعوة عن غايتها الجادة في كشف الضلالة عن العقول والعماية عن القلوب [1]) .

إن العقيدة الإلهية في الإسلام لا تحتاج إلى ذلك الصراع الذهني والجدل العقيم في الله / تعالى / وذلك لأنها واضحة في ذاتها ، ولأنها تعتبر أكمل عقيدة في الدين وهي أكمل عقيدة في العقل – كذلك – ، يوضح هذا ما في القرآن الكريم من آيات كثيرة تدل على وحدانية الباري / عز وجل / وعلى اتصافه بصفات السمو والكمال ، يقول / جل شأنه / : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد [2]) ويقول / تعالى / : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم [3]) ويقول / تعالى / : (عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير [4]) ويقول / تعالى / : (وهو القاهر فوق عباده [5]) .

ومن هنا فإن القرآن الكريم دستور الإسلام والمسلمين في كل وقت وحين نزل على الرسول الأمين محمد / صلى الله عليه وسلم / ليؤكد هذا

---

(1) عبد الكريم الخطيب الله ذاتا وموضوعا ص 368-369 .

(2) سورة الإخلاص : كاملة .

(3) سورة الحديد : الآية 3 .

(4) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 74 .

(5) سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 62 .

المعني ويقرره في النفوس ، يقول الله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [1]) ويقول / جل شأنه / : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون هو الذي خلقكم من طين ثم قضي أجلا وأجل مسمي عنده ثم أنتم تمترون [2]) .

فهذه الآيات الكريمة — وغيرها كثير — تدل بكل وضوح أن هناك وجودين : وجودا للخالق عز وجل ، ووجودا للمخلوق . وأن وجود الخالق — جل وعلا — وجود دائم ثابت قديم ، وأن وجود المخلوق وجود حادث متغير فإن : (كل شئ هالك إلا وجهه [3]) ، (كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام [4]) .

هذا هو الحق الذي يقرره ويعترف به الدين الإسلامي الحنيف ، وجميع الرسالات السابقة عليه التي لم يدخلها تحريف ولم يطرأ عليها تغيير أو تبديل . أما ماعدا ذلك من آراء وتفسيرات الفلسفات البشرية فقد اختلفت وجهات نظرهم في قضية الوجود .

---

(1) *سورة البقرة : الآية 20* .

(2) *سورة الأنعام : الآيات : 1-3* .

(3) *سورة القصص : الآية : 88* .

(4) *سورة الرحمن : الآيتان 24 - 25* .

وقد أغنانا القرآن الكريم — والحمد لله — عن آرائهم وتفسيراتهم فيما يتعلق بالألوهية ومسائلها المتنوعة .

ففي القرآن الكريم مصدر العقيدة الصحيحة في الله / تعالي/ وفي كافة المسائل العقدية .

والمسلم الذي آمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر يدرك إدراكا كاملا المعني الحقيقي للفظ الجلالة (الله) ، إنه يدرك أن هذا الاسم العظيم هو الموجود الأسمى ، المتفرد بكل صفات الكمال ، الحائز لكل معاني العزة والجلال ، المهيمن على كل من وما سواه ، القاهر للخلق جميعا بماله من مطلق القدرة ومطلق الأمر والنهى .

والفطرة البشرية السليمة يتضح لها هذا الإدراك ، وينكشف انكشافا تاما بحيث لا يدانيه ريب ولا شك ، ويتجلى لها هذا المعني من الوجود الأكمل في نفس الإنسان وفي كل ما يحيط به من مخلوقات ، وما يجرى في العالم من أحداث وتغيرات .

ومتي حصل لنا هذا الإدراك الواضح لهذا الموجود الأقدس استحق منا قطعا أن نفرده بالعبادة ، وأن نتوجه إليه وحده في طلب الهداية والتوفيق لأنه أمل كل المؤمنين / جل وعلا / .

** **حرية الإنسان في قضية العقيدة :**

من الأمور المؤكدة أن توجه الإسلام إلى الناس بطلب الإيمان بهذه العقائد الكبرى لا يعتمد على الإكراه ، إذ : (لا إكراه في الدين [1]) (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين [2]) .

كما أن الإسلام لا يعتمد على استعمال وسائل الجبروت والقهر ، كالتهديد والوعيد ، وما أشبه ذلك كي يرغم الناس على الدخول فيه ، والإيمان بعقائده ومبادئه ، كما أنه كذلك لا يعتمد على عنصر المفاجأة بخوارق العادات في المحسوسات والمشاهدات حتى تنبهر بها عقولهم فيعتقدونها دون أن تتهيأ لهم فرصة للتأمل والنظر والتفكير (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين [3]) ، وإنما يعتمد الإسلام في طلب الإيمان بهذه العقيدة على الحجة والإقناع والدليل والبرهان ، ويعطى الفرصة للإنسان حتى يؤمن عن اقتناع قلبي بعد أن ينظر ويفكر ويتأمل .

بناء على ما ذكر فإن التسامح الديني يعتبر مبدأ مهما من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ؛ فقد شيده الله /تعالى / على قواعد عالية ثابتة لا

---

(1) سورة البقرة : جزء من الآية رقم 254 .

(2) سورة يونس : جزء من الآية رقم 99 .

(3) سورة الشعراء : الآية رقم 3 .

تدع للحقد الديني محلا في نفس المؤمن الذي يعتقد بأن الحكمة الإلهية قضت بأن النوع الإنساني يكون مختلفا في عقائده وغيرها ، يقول الله / جلت قدرته / : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم [1]) .

وأن الإنسان لا يستطيع أن يهدى أحدا إلا إذا شاء الله هدايته ، حتى إن الله / تعالى / قال لنبيه / عليه الصلاة والسلام / : (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء [2]) .

وأنه ليس لأحد – أيا كان – السيطرة على غيره في عقيدته ودينه ، بل غاية ما يملكه المؤمن نحو غيره التذكير والموعظة الحسنة والجدل الأحسن ، يقول / تبارك وتعالى / : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر [3]) ، ويقول / تعالى / : (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد [4]) .

وقد أقرت شريعة الإسلام حرية الضمير والعبادة ، وكفلتها لأتباع كل دين يحيا في ضلال الإسلام وأمنه وعدله ، ومنعت الإكراه على

---

(1) سورة هود : جزء من الآية رقم 118 .

(2) سورة القصص : جزء من الآية رقم 56 .

(3) سورة الغاشية : الآيتان : 21 – 22 .

(4) سورة (ق) : الآية : 45 .

اعتناقه . (1)

وقد ظهر حرص الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / على كفالة حرية العقيدة ، فحث على عدم إيذاء غير المسلمين في الدولة الإسلامية .

ولهذا أقر الإسلام مبدأ التسامح في أرحب آفاقـــه ، وقـــرر حريـــة الاعتقاد ، وهو أصل مدني لم يظهر في أوروبا إلا مـــن خـــلال الثـــورة الفرنسية .

إذن فالعقيدة في الإسلام لم تبن على القهر والتسلط والجبروت ، بـــل بنيت على أساس الحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين في كل ما يطلـــب من الآخرين ، واستعملت معهم كل السبل الموصلة إلي اليقين .

ومن هنا جاءت مسالك الاستدلال على طرق العقيدة ، وطلـــب مـــن العلماء العالمين بفنونها القادرين على بيان حججها إقامتها وتبيانـــها لمـــن خفي عليهم شأن من شئونها ، أو عجزت عقولهم على النظر والتـــأمل ، أو قصرت أفهامهم في استخدام طرق الاستدلال والتوضيح .

---

(1) أنظر : د. توفيق الطويل : *قصة الإضطهاد الديني في المسيحية والإسلام* ص165 _ 166 .

المبحث العاشر

وجـــود الله تعالـــى

المبحث العاشر

وجـــود الله تعالـــى

** تمهيد :

قضية وجود الله / تعالى / تعتبر أهم قضية ، بل أهم مقصــــد مــن مقاصد الكريم ، فقد تقرر في هذا الكتاب الخـــالد أن الله موجـــود واجــب الوجود ، وهو الذي خلق كل شئ بقدرته وإرادتــــه وعلمـــه ــ سـبحانه وتعالى ــ ، وأوضح / جل شأنه / أنه ليس في وجوده شك بمجرد النظـــر إلى السموات والأرض ومن وما فيهما : (أفي الله شك فـــاطر الســموات والأرض) [1] .

وقـــرر ــ كذلك ــ بأنـــه ــ جل وعـــلا ــ لا يشـــبه أحـــدا مـــن مخلوقاته ، ولا يشبهـــه أحد من مخلوقاته : (ليس كمثلـــه شـــئ وهـــو السميـــع البصير) [2] ، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تثبت بشـــكل قاطع ونهائي أن الله وحده هو الخالق لهذا الكون كلـــه ، يســيره بحكمتـــه ويرتبه بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

---

(1) *سورة إبراهيم / عليه السلام / : جزء من الآية رقم 13 .*

(2) *سورة الشورى : الآية 11 .*

وعلى الرغم من أن هناك أناسا في الماضي والحاضر لم يؤمنوا هذا الإيمان ، ولم يستقر في قلوبهم هذا الاعتقاد فإن ذلك غير قادح في وجود الله / تعالى / بأي حال من الأحوال ــ كما يقول عباس العقاد ــ[1] وذلك مثل هذا العالم وما فيه من جمال ونظام فإذا احتجب هذا الجمال عن أناس وأسفر لأناس آخرين فليس ذلك بقادح في وجوده .

إذا أننا لا نعرّف الشئ الموجود تعريفا سائغا ومرضيا إذا قلنا عنه إنه الشيء الذي ندركه بالحس أو بالعقل أو بالبصيرة لأننا بهذا التعريف نعلق الموجود على موجود آخر هو الذي يدركه الإنسان بحسه أو بعقله أو ببصيرته ، فلا يكون الشيء موجودا إلا إذا كان له محسون ومدركون وذوو بصيرة .

وعليه فإن ألزم لوازم الوجود هو أن يكون غير معدوم ، فيكفي أن ينتفي العدم ليتحقق الوجود ، فكل ما ليس بمعدوم فهو لا محالة موجود [2] .

وهذا التحليل مهم جدا في إثبات كثير من الأشياء التي لا يمكن أن يتناولها الحس ، مثل : الروح ، الجن ، والملائكة وغيرها .

---

(1) في كتابه : ((الله)) ص 210 .

(2) انظر : عباس العقاد المصدر السابق ص 34 .

لذلك نرى الماديين المنكرين لوجود الله / تعالى / ميالين إلى الاعتقاد بما يقع تحت حواسهم من الكائنات ، وإلى إنكار ما ليس له صورة ولا حدود محصورة .

إن الهدف من الاستدلال على وجود الله / تعالى / أولا وأخيرا تعريف المنكرين من غير المسلمين ، وتعريف جمهور المسلمين وعامتهم بوجهة نظر علماء الإسلام وطريقتهم في الاستدلال على وجود الخالق ــ عز وجل ــ بأسلوب بسيط وطريقة سهلة يستطيع كل إنسان فهمها تجمع بين القديم والحديث كي يعرف الإنسان مناهج هؤلاء وأولئك ، وكيف ردوا على الملاحدة والمنكرين لوجود الله / تعالى / بأسلوب الحجة والبرهان ، بانين مناهجهم على أسلوب القرآن مسترشدين بالعقل الذي وهبه الله للإنسان .

وقد قصدت إلى عرض تلك البراهين العقلية والاصطلاحات التي سار عليها أولئك الأعلام عرضا سهلا ميسرا دون الانتقاص من معاني تلك الأدلة والبراهين .

إن المسالك والطرق إلى الله / تعالى / تفوت الحصر وتفوق السبر ــ كما قيل ــ إن للاستدلال على الله / تعالى / طرائق بعدد أنفاس الخلائق : وفي كل شئ له آية تدل على أنه الواحد [1]

---

(1) انظر : محمد جمال الدين القاسمي : دلائل التوحيد ص 13 ؛ وقبل هذا البيت : أياعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد ؟ . والبيتان لأبي العتاهية ، انظر ديوانه تحقيق شكرى فيصل ص 104 .

1 ــ مسالك القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / :

إن مسلك القرآن الكريم في قضية وجود الله / تعالى / يقوم على لفت أنظار الناس إلى عجائب الصنع والإبداع في السموات والأرض وما بينهما ، وبخاصة هذا المخلوق (الإنسان) الذي أمده الله بعقل (قيل فيه إنه علوم ضرورية)[1] .

فهذا الإنسان الذي خلقه الله / تعالى / وكرمه ، وأمده بهذا العقل لا يمكن له أن ينكر ــ مثلا ــ ما يشاهد في هذا الكون الفسيح من أصناف الموجودات وأنواعها .

فنحن نرى الموجودات وقد تفاوتت رتبها ودرجاتها ، بعضها أدنى وبعضها أرقي ، وبعضها في مرتبة وسط بين هذا وذاك ، وتتخذ كل منها في هذا التفاوت خاصيات ومميزات معينة تتحقق بها مغايرتها لغيرها ذاتا وصفة .

فمن فصائل الموجودات : الأجسام والنباتات والحيوانات والإنسان ، والأرض بما فيها من طبقات ومركبات جيولوجية ، والهواء بما حوى من عناصر كيماوية ، والسماء بما اشتملت عليه من كواكب وأفلاك لا يمكن حصرها .

---

[1] انظر : أحمد العلوى . مشارق أنوار العقول ص15 .

فالأجسام تتحرك بعد أن كانت ساكنة ، ويصغر حجمها بعد أن كانت كبيرة ، والنباتات تنمو وتترعرع بعد جمود وذبول ثم تشتد وتطول بعد ضعف وقصر وهكذا ، وهذا العالم وما يحويه لا يكفي فيه مجرد مشاهدتنا لحوادثه ومظاهره وتفاعلاته المختلفة ، بل لابد مع ذلك من الإدراك البالغ والفكر والتأمل العميق .

لذلك كله جاء الإسلام موجها أنظارنا إلى ما أودع الله /تعالى / في هذا العالم من مواد وقضايا ضرورية لاستدلال العقل على وجوده .

أجل لقد جاء القرآن الكريم حاثا لعقولنا على النظر في الكون ، موجها لها إلى محاولة استكشاف أسراره وبدائعه ،

ولهذا زودت الفطرة البشرية بالتطلع إلي المعرفة والطموح إلى التفكير في خلق السموات والأرض ، ولهذا ــ أيضا ــ جعل القرآن الكريم العقل مناط التكليف وموضوع المسئولية في الإنسان .

وماذا يشوق الإنسان ويوقظ عقله ووجدانه أكثر من الرحلة العقلية الممتعة في عالم الوجود لا يبذل لها المرء مالا ، ولا يتكلف لها سعيا وانتقالا ؟! وقد صدق القائل :

فانظر إلى نفسك ثم انتقل   للعالم العلوي ثم السفل

إنها نظرة واعية متأملة يملأ بها عينيه من صامت الوجود وناطقه .

اقرأ وتأمل قوله / تعالى / : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلي الأرض الجرز فنخــرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهــم أفلا يبصرون)[1] .

ثم استمع بعقلك وقلبك قول الباري / جل وعلا / : (الله الذي رفــع السموات بغير عمد ترونها ثم استوي على العرش وسخر الشمس والقمــر كل يجري لأجل مسمي يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنــون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعــل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفــي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغــير صنوان تسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلــك لآيات لقوم يعقلون)[2] .

ثم اقرأ وتدبر قوله / تعالى/ : (فلينظر الإنسان إلــى طعامــه إنــا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيــها حبــا وعنبــا وقضبــا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولإنعامكم)[3] .

ثم انظر كيف وجه القرآن الكريم الناس إلى التفكــير والتدبــر فــي نفوسهــم التي هي أقرب الأشياء إليهم ، إذ يقول / عز وجل / : ((وفــي

---

(1) سورة السجدة : الآية 27 .

(2) سورة الرعد : الآيات : 2 ـ 4 .

(3) سورة عبس : الآيات : 24 ـ 31 .

أنفسكم أفلا تبصرون))[1] .

وذلــك لأن من تأمل في نفسه بــالفكر ، وقصــد إلــي وجدانــه بالتصفية ، وإلى قلبه بالرياضة الروحية كان جديرا بأن تنفتح لــه أعيــن أخرى لا يقل إدراكها وضوحها عن إدراك عينيه في العالم الحسي ، وتلــك هي عين البصيرة .

ومن تدبير القرآن الكريم في سياق وجود الله / تعالى / استــعراض مظاهر قدرة الله / تعالى / وعظمته وحكمته فيما يبدو عليه هــذا النظــام الكوني من روعة ودقة وإحكام ، يقول الله / تبارك وتعــالى / : ((ومــن أياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهــتزت وربــت إن الذي أحياها لمحي الموتى انه على كل شئ قدير))[2] .

ومن الأساليب التي نهجها القرآن الكريم في الإلفات إلى عظمــة الله وقدرته أسلوب الاستفهام التقريري الذي يتحدث عن خلق من خلق الله ، أو عن آيــة من آياته ونعمه ، وفى هذا الأسلوب السامي يجد الســامع نفســه أمام ســؤال ليس له إلا جواب واحد هو الإقرار والإيمــان بوجــود الله / تعالى / ، يقول الله / تعالى / : ((أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكــم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجــة ما كان لكم أن تنبتوا شــجرها

---

(1) سورة الذاريات : الآية 21 .

(2) سورة فصلت : الآية 38 .

أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون)) [1] . ويقول / تعالى / : ((أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور)) [2] .

ومن الأساليب الراقية المعجزة التي نهجها القرآن الكريم أسلوب موقف المدعي فيدلي بالحجج والبينات ويقيم البراهين بين دعواه فلا يجد الخصم منفذا ومهربا [3] . انظر إلى قوله تعالى : (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر) [4] .

وهذا أسلوب قد جاء فيه القرآن الكريم بألوان من ضروب الإعجاز الذي خرست له الألسنة ، وتضاءلت أمامه العقول ، وتصاغرت بين يديه الأفهام .

ثم إن القرآن الكريم لم يغفل أن يحدد منهج الدعوة إلى أصول الإسلام ، وهي عقيدة التوحيد بعناصرها الثلاثة : ما يتعلق بالله

---

(1) سورة النمل : الآيتان 62 ـ 63 .

(2) سورة الملك : الآية 21 .

(3) انظر : عبد الكريم الخطيب. الله ذاتا وموضوعا ص394 وما بعدها .

(4) سورة البقرة : جزء من الآية 257 .

/ تعالى / وبرسله ، وباليوم الآخر . وقد كانت دعوة الرسل / عليهم الصلاة والسلام/ إلي الناس بتعليمهم إياها وتحويلها من النظر إلي التصديق واليقين .

وقد أجمل الله / تعالى / العناصر مرتبة في آيات كريمة من سورة البقرة في قوله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) [1] .

فانظر كيف دعا الله / تعالى / الناس على لسان نبيه محمد / صلى الله عليه وسلم / بهذه العناصر ، وعلى هذا الترتيب الدقيق المعجز . فبدأ بالاستدلال على التوحيد بأنفسهم في قوله / تعالى / : (الذي خلقكم) ثم بأحوال آبائهم وأجدادهم بقوله : (والذين من قبلكم) ثم بأحوال أهل الأرض بقوله : (الذي جعل لكم الأرض فراشا) ثم بأحوال السماء بقوله : (والسماء بناء) ثم بالحوادث التي تحدث بين السماء والأرض بقوله : (وأنزل من السماء ماء ..الآية) .

ثم رتب المطلوب من هذه المراتب فقال : (فلا تجعلوا لله أندادا) ، ثم استدل على صحة نبوة خاتم الرسل / صلى الله عليه وسلم /

---

(1) سورة البقرة : الآيات 20 ـ 23 .

فقال : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ..الخ الآية) . ثم خلص إلي بعض مما في اليوم الآخر من الجنة والنار في آخر الآيات [1] . وفي هذه الآيات المذكورة نهج القرآن الكريم منهج الابتداء من الأعرف فالأعرف نازلا إلي الأخفي فالأخفى .

على أن القرآن الكريم قد نهج منهجا آخر هو الابتداء بالأشرف فالأشرف نازلا إلي الأدنى فالأدنى كما في قوله / تعالى / : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) .. إلي آخر الآيات [2] .

فقد استدل أولا بالسموات والأرض ، ثم خلق الإنسان ، ثم أحوال الحيوان ، ثم أحوال النبات ، ثم أحوال العناصر الأخرى ، ثم ذكر الأرض ، وأنهي الآيات الكريمة بقوله / تعالى / : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) [3].

أما من حيث توجيه العقل وحث الناس على استعمال الفكر والنظر فإن في القرآن الكريم كثيرا من الآيات تدل دلالة صريحة على أن لهذا الوجود موجدا أوجده وخالقا أنشأه ، ومن هذه الآيات قوله / تعالى / :

---

(1) *أنظر:عبد القادر أحمد عطا. مقدمة كتاب قصص الأنبياء لإبن كثير ص15 ــ 16*

(2) *سورة النحل : الآيات : من 2 ــ 18 .*

(3) *أنظر : الرازي : التفسير الكبير . مجلد 5 ص. 289 .*

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) [1] .

وقوله / تعالى / (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) [2] وقوله / تعالى / : (أفلا ينظرون إلي الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت [3]) ، وقوله / تعالى / : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) [4] .

وقوله / تعالى / وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) [5] .

---

(1) *سورة البقرة : الآية 163 .*

(2) *سورة آل عمران : الآية 190 .*

(3) *سورة الغاشية : الآية 17 ــ 20 .*

(4) *سورة الغاشية : الآيات 17 ــ 20 .*

(5) *سورة يس : الآيات 36 ــ 39 .*

إلي غير ذلك من الآيات الناطقة بوجوده وعظمته وكبريائه وقدرته ، فآياته — جل وعلا — واضحة لمن يريدها ويستقيم إلي مغزاها ولكنها وحدها لا تقنع من لا يريد ولا يستقيم : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) [1] .

يقول الإمام الغزالى : (فليس يخفي على من معه أدني مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات ، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماء وبدائع فطرة الحيوان والنبات ، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره ، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره)) .

ولذلك قال الله / تعالى / : ((أفي الله شك فاطر السموات والأرض))[2] ؛ ولهذا بعث الأنبياء / صلوات الله عليهم / لدعوة الخلق إلي التوحيد ليقولوا : ((لا إله إلا الله ...))[3] إن هذا العالم خلق من تأمله ، ونظام من تفكر في أمره آمن بأن له خالقا ، وجزم اعتقاده بأن له ربا يدبر أمره .

---

(1) سورة الحجر : الآيتان 14 — 15 .

(2) سورة ابراهيم : جزء من الآية 13 .

(3) الغزالى : قواعد العقائد تحقيق سعيد زايد ص 60 — 61 .

فجدير بمن تفكر في هذا الكون ونظامه في سمائه وأرضه ، وما في السماء من نجوم وكواكب وشمس تجرى لمستقر لها ، وقمر قدره الله منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، وما ذلل الله به الأرض للمشي في مناكبها والاستقرار عليها ، وما أمسكها به من الجبال الراسيات ، وما نوع به الماء من عذب فرات وملح أجاج ، وإلى الإنسان وكيف خلقه وتدرج به في عملية خلقه من التراب إلي النطفة إلي العلقة إلي المضغة ، ثم إلي مراحل عمر الإنسان من الطفولة حتى الشيخوخة ، وما يسير به كل شئ في نظام دقيق وترتيب زمني لا يتقدم فيه ولا يتأخر .

ولو اضطرب الترابط المشاهد بين الكائنات لتداخل بعض العالم في بعض ، ولسقطت السماء على الأرض ، ولفسد نظام الكون ، ولكنه من صنع قادر حكيم وعالم مريد ((فتبارك الله أحسن الخالقين))[1] .

أقول جدير بمن شاهد كل ذلك ووقف عليه وتفكر فيه أن يؤمن بخالقه ومنشئه — جل وعلا — ((ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار))[2] .

إن الإسلام دين يدعو إلي النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض ، ويطلب من العقول المستنيرة والقلوب الواعية والنفوس الزكية

---

(1) سورة المؤمنون جزء من الآية رقم 14 .

(2) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 191 .

التفكير في حقائق الأشياء وأسرار الكون وخفايا الوجود . وقد وصف القرآن الكريم المتأملين في هذا الكون بأنهم أولوا الألباب ، ورمى الذين لا يتدبرون ولا يتفكرون بأنهم لا يعقلون .

وقد أراد الله / تعالى / بهذا الحض الحازم أن يصل المؤمنون إلي معرفة الله / تعالى / ووحدانيته وكماله المطلق ، وإلى الإيمان به عن طريق العقل والوجدان مسترشدين بالقرآن لا عن طريق التقليد الذي غالبا ما يكون محفوفا بالشكوك والمخاطر . لهذا كله دعا القرآن الكريم الناس جميعا إلي استعمال عقولهم في الفكر والنظر والبصر والتدبر والاعتبار والتأمل والذكر والعلم .

والعقل الذي يخاطبه القرآن الكريم هو العقل الذي يقوم به الفهم والوعي ، فكل خطاب إلي ذوى الألباب في القرآن الكريم هو خطاب إلي اللب ، هذا العقل المدرك الفاهم الواعي لأنه معدن الإدراك والفهم في ذهن الإنسان كما يدل عليه اسمه في لغتنا العربية التي نزل بها كتاب الله عز وجل [1] .

يقول / جل شأنه / : ((والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب [2])) .

---

(1) انظر : عباس العقاد. الفلسفة القرآنية ص13

(2) سورة آل عمران : جزء من الآية رقم 7

ويقول تعالي: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر آلا أولوا الألباب[1]) .

وأصحاب التفكير الصحيح الصادق هم أولوا الألباب ، فهم الذين يصلون إلي علم صحيح وحكمة عالية وتفكير مستنير يصلهم بخالقهم ــ جل وعلا شأنه ــ (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2]) .

فهم الذين يتصفون بالأخلاق الفاضلة والسمو الروحي والأدب الرفيع مع الله / تعالى / ومع أنفسهم ومع من حولهم لأنهم دائما يتذكرون ويتفكرون ويتدبرون ويستجيبون ويحسنون الاستماع ويحسنون الإتباع : ((الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب [3])) .

فالقرآن الكريم كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، ويحث على الفكر ، ويجعل التفكير السليم والنظر الصحيح إلي آيات خلق الله تعالى وجميل صنعه وسيلة من وسائل الإيمان بالله /تعالى/ .

لقد بين علماء المسلمين كثيرا من الأدلة على وجود الله /تعالى/ مستنبطين ذلك من القرآن الكريم .

---

(1) سورة البقرة : الآية 268 .

(2) سورة الزمر : جزء من الآية رقم 10

(3) سورة الزمر : جزء من الآية رقم 16

يقول ابن القيم في كتابه : ((مفتاح دار السعادة)) مستدلا على وجود الله / تعالى / بالنحل وأحوالها وعجيب أمرها ، وما فيها من العبر والآيات الدالة على وجود خالق الخلق جميعا ، يقول : ((تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات ، فانظر إليها وإلى اجتهادها في صنعة العسل ، وبنائها البيوت الهندسية المسدسة التي هي أتم الأشكال وأحسنها استدارة واحكمها صنعا ، فإذا انظم بعضها إلي بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل ، كل ذلك بغير مقياس ولا آلة ، وهذه من آثار صنع الله وإلهامه إياها ، وإيحائه إليها ، كما في قوله / تعالى / : ((وأوحى ربك إلي النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون [1]))

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمراها لربها حيث اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون.

ومن عجيب أمرها أن لها رئيسا يسمى " اليعسوب " لا يتم لها رواح ولا إياب إلا به ، فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة إياه يدبرها كما يدبر الملك مملكته حتى إذا آوت إلي بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الأخرى ولا تقدم عليها في العبور ، بل تعبر بيوتها واحدة بعد

(1) سورة النحل : الآيتان 68 - 69

أخرى بدون تزاحم ولا تصادم ولا تراكم .. وتلك إحدى الآيات والعجائب التي قل من يتفطن لها ، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسعي والمعاش والبناء والنتاج .

فسل المعطل من الذي أوحى إليها أمرها ، وجعل ما جعل في طباعها ؟ ، ومن الذي سهل لها سبلها ذللا لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ، ولا تضل عنها على بعدها ؟ ، ومن الذي أنزل لها ما أنزل ما إذا جنته صار عسلا شهيا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ؟ ، لا شك أنه الله العليم الحكيم ، كما دلت على ذلك الآيتان الكريمتان [1])) .

إن براهين القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / وعظمته كثيرة متنوعة ، وهى الحق والصواب ولها ميزات وفوائد لا تحصى ، وقد لخص الإمام الرازى بعض ميزات منهج القرآن فيما يلي :

1 — أدلة القرآن الكريم أدلة محسوسة لا تحتاج إلي تجريدات عقلية .

2 — وهى كثيرة متعاضدة ، والكثرة والتوالي يفيدان القوة .

3 — إن الإنسان لا ينفك في شئ من أحواله عن مشاهدة شئ منها ، سواء أكان ذلك في نفسه ، أم في ما حوله ، أم في أنحاء السموات والأرض ، وكثرة الممارسة تفيد الملكة الراسخة .

(1) ابن قيم الجوزية : مفتاح دار السعادة ص267 وما بعدها .

4 — إن هذه الدلائل — إذا كانت آيات وبراهين على وجود الله من جهة — فهي من جهة أخرى وفى نفس الوقت نعم ومنافع . والإنسان مجبول على حب من نفعه ، والإنعامات المتوالية الكثيرة تفضي إلي الانقياد للمنعم وشكره ، فلكونها دلائل أفادت العقيدة الراسخة ، ولكونها نعما كانت سببا من أسباب العبادة والتوجه إلي الله / تعالى /[1] .

وأخيرا فإن في الآيات القرآنية الكريمة الدالة على وجود الله / تعالى / وصفاته مجمل العقيدة الإلهية في القرآن الكريم ، وهي أكمل عقيدة في العقل ، وهي أكمل عقيدة في الدين . فقد تقرر في كتاب الله / عز وجل / خالق واحد لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شئ ، عليم بكل شئ ، محيط بكل شئ ، وليس كمثله شئ . وعالم مخلوق خلقه الله ، ويرجع إلي الله ، ويفني كما يوجد بمشيئة الله [2] .

ومنهج القرآن الكريم في قضية وجود الله / تعالى / هو جماع مناهج جميع الحكماء والفلاسفة . فهو المنهج الذي يقيم الحجة بوجود المخلوقات على وجود الله ، وبنظام الكون ودقته على وجود المدبر المريد — جل وعلا — .

---

(1) *الرازي : المطالب العالية ج1 ص 82 ، والتفسير الكبير جـ2 ص113 – 114*
وانظر كذلك : محمد صالح الزركان : فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص199 – 200

(2) *انظر : عباس العقاد. الفلسفة القرآنية. ص 92 .*

2 — <u>مسلك الفلاسفة الإسلاميين</u> :

والمقصود بالفلاسفة الإسلاميين : الفارابي ، وابن سينا ، ومن سار على طريقتيهما .

وإنما قدمت هذا المسلك على مسلك المتكلمين وغيره ، لأنه :

(أ) — يمكن اختصاره إلي حد كبير .

(ب) — إن الحديث فيه ليس مقصود لذاته ، وإنما لكي نفرق بينه وبين مسلك المتكلمين الذي هو المقصود بالذات .

ومن المعلوم أن الفلاسفة المسلمين يعبرون عن لفظ الجلالة (الله) في الغالب بواجب الوجود بذاته المبدأ الأول ؛ أي هو واجب الوجود بذاته لأن وجوده نفس ذاته ، وهو مبدأ لأنه يصدر عنه كل شئ ، وأول لأنه سابق أزلا على كل موجود .

والطريق الذي اختاره الفلاسفة الإسلاميون يعتمد أساسا على التفرقة بين الواجب والممكن ، إذ أنهم يقسمون الوجود إلي ممكن وواجب وأن ممكن الوجود هو الذي متي فرض غير موجود ، او موجودا لم يعرض منه محال ، أما واجب الوجود فهو الذى متى فرض غير موجود عرض منه محال لأن وجوده لا يتخلف .

ويتلخص مسلك الفلاسفة الذي يسمي الدليل الوجودى في أن الله /تعالى / — وإن كان يمكن الاستدلال عليه عن طريق العالم المشاهد ، أو الصعود من المحدثات إليه — لكن الطريق الأوثق إلي معرفة وجوده / تعالى / هو أن نبدأ بالوجود نفسه ، فإذا وجدنا من هذا الوجود العام وجودا واجبا بذاته فقد وصلنا إلي المطلوب ، وإلا نظرنا إلي الوجودات الممكنة ، وبما أن كل ممكن له علة هي سبب وجوده فإننا نرتقي في سلسلة المعلولات والعلل ، ولكن لابد أن تنتهي هذه السلسلة إلي علة هي واجب الوجود بذاته ، وذلك بعد إبطال الدور والتسلسل .

ويرى ابن سينا أن هذا الدليل قد استنتج من نفس الوجود ، وهو الأولي والأوثق والأشرف عنده ، وذلك لأنه لا يحتاج إلي اعتبار شئ مشاهد أو محسوس ، وهو قبل هذا وذاك استشهادا بالحق على كل شئ ، وليس استشهاد بكل شئ على الحق / تبارك وتعالى / .

يقول ابن سينا : (تأمل كيف لم يحتج بياننا لثبوت الأول ووحدانيته وبراءته من السمات إلي تأمل لغير نفس الوجود ، ولم يحتج إلي اعتبار من خلقه وفعله — وإن كان ذلك دليلا عليه — لكن هذا الباب أوثق وأشرف ، أي إذا اعتبرنا حال الوجود فشهد به الوجود من حيث هو وجود ، وهو يشهد بعد ذلك على سائر ما بعده في الوجود ، وإلى مثل هذا أشير في الكتاب الإلهي : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم

أنه الحق[1]) ، أقول إن هذا حكم لقوم ، ثم يقول : (أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد [2]) أقول إن هذا حكم الصديقين الذين يستشهدون به لا عليه) [3] .

ويقصد ابن سينا بقوله : (إن هذا حكم لقوم) المتكلمين والحكماء الطبيعيين ، أما الصديقون ، فيقصد بهم الفلاسفة ، وقد وسمهم بالصديقين وهم الملازمون للصدق دائما ويستشهدون بالواجب لا عليه .

وبهذا فإن ابن سينا / الذي يمثل الفلاسفة المسلمين / يرجح طريقة الحكماء الإلهيين لأنها — في نظره — أولي البراهين بإعطاء اليقين ، وهي الاستدلال بالعلة على المعلول لا الاستدلال بالمعلول على العلة [4] . كما هو رأى المتكلمين — كما سيأتي — .

---

(1) *سورة فصلت : الآية 52*

(2) *سورة فصلت : الآية 52 .*

(3) *ابن سينا : الإشارات والتنبيهات . تحقيق د.سليمان دنيا ج 3 ص 70 –80 .*

(4) *د. سالم مرشان : الجانب الإلهي عند ابن سينا ص77 .*

3 ـ *مسالك المتكلمين* :

إن علماء التوحيد – بصورة عامة – عنوا عناية كبيرة بالاستدلال على وجود الله / تعالى / وحاولوا ـ بكل جهد ـ أن يردوا على من أنكر وجود الله / تعالى/ بالأدلة النقلية ، أي بأدلة القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبالأدلة العقلية ، أي بالبراهين المنطقية المبنية على المقدمات المسلمة .

وغرضهم من ذلك ـ كما سبق ـ هو الرد على المبطلين والملاحدة الذين اتخذوا المنطق سلاحا لهم .

وعليه فإن علماء التوحيد استدلوا على وجود الله / تعالى / بأدلة عقلية بالإضافة إلي الأدلة النقلية الواردة في كتاب الله / تعالى / .

وفي هذه الدراسة سنسير معهم في بيان هذه الأدلة وتفصيلها :

** *الدليل الأول : دليل الحدوث* .

يبنى المتكلمون طريقهم على حدوث الجواهر والأعراض ، ويستدلون على حدوث كل منهما ، وبعد ذلك يثبتون وجود الله / تعالى / .

ونظم الدليل ـ عندهم ـ هكذا :

العالم ـ وهو جواهر وأعرض (إذ لم يقم برهان على غيرهما) ـ حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، وهذا المحدث الذي أحدث العالم هو الله / تعالى / .

أو يقال : الله يجب افتقار العالم وكل جزء من أجزائه إليه ، وكل من وجب افتقار العالم إليه واجب الوجود ، فالله واجب الوجود .

وهذان الدليلان ـ كما هو معروف ـ مؤلفان من مقدمتين صغري وكبري ، ولابد لهذين المقدمتين من دليل .

دليل الصغرى العالم حادث وكل حادث يجب افتقاره إلي محدث فالعالم يجب افتقاره إلي محدث .

ودليل الكبرى أنه لو لم يكن المفتقر إليه العالم واجب الوجود لكان جائز الوجود فيكون حادثا ويحتاج إلي محدث ، ومحدثه إلي محدث فإن رجع إلي الأول مباشرة أو بالواسطة فدور ، وإن تتابع المحدثون إلي مالا نهاية فتسلسل ، وكل من الدور والتسلسل باطل فبطل ما أدى إليه ـ وهو أنه غير واجب الوجود ـ وثبت أنه واجب الوجود وهو المطلوب .

بالنظر في هذا الدليل بجملته ترى فيه ألفاظا تحتاج إلي البيان والتوضيح ، مثل : العالم ـ الجوهر ـ العرض ـ الدور ـ التسلسل ـ محدث .

وإليك بيانها : العالم ـ بفتح اللام ـ لغة مأخوذ من العلم بمعني العلامة . واصطلاحا : هو ما سوى الله تعالى من الموجودات .

وكلمة (العالم) كلي يشبه الجنس ، ويقال على القدر المشترك بين سائر الكليات المندرجة تحته ، فيقال : الإنسان والحيوان والنبات والجماد .. الخ عالم ، وتقول : الإنسان عالم ، والنبات عالم .. الخ .

وأما كلمة محدث – بفتح الدال – فمعناها : موجود بعد العدم ؛ فالأرض وماعليها ، والسماء بما فيها قد وجدت من العدم المحض ، وقد كان الله ولا شئ معه ، ثم أوجد هذا العالم بقدرته وإرادته .

ومعنى الجوهر : هو ما قام بذاته ، أي أنه يتحيز بنفسه فلا يكون في تحيزه تابعا لتحيز غيره ، وينقسم قسمين : إما مركب وهو الجسم ، أو غير مركب كالجوهر الفرد ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ ، وهو ما يعبر عنه في العصر الحديث بالذرة .

والعرض مالا يقوم بذاته ، أي أنه لا يتحيز بنفسه ، بل يتبع غيره في التحيز .

ومعنى الدور أن شيئا ما توقف وجوده على شئ آخر ، وهذا الآخر قد توقف وجوده على ذلك الشي الأول ، إما مباشرة أو بواسطة أو أكثر ، وهذا يعنى أن الشي الأول متقدم من حيث هو متوقف عليه ، ومتأخر من حيث هو متوقف على غيره ، فيلزم – إذن – توقف وجود الشي على وجود نفسه ، وهو بدهى البطلان .

ومعنى التسلسل : (فرض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلي مالا نهاية بحيث يكون كل واحد منها معلولا لما قبله وعلة لما بعده دون أن تنبع هذه السلسة أخيرا من علة واجبة الوجود هي التي تضفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات[1]) . فهذا التسلسل استحالته بدهية لا يخالف فيها أحد من العقلاء .

** *الدليل الثاني : دليل الاختراع* .

وأساس هذا الدليل أن هذه الموجودات مخترعة (أي مخلوقة مصنوعة) وأن كل مخترع لابد له من مخترع .

وقد اقتصر الإمام الأشعرى – في كتابه : (اللمع) – على هذا الدليل ، وهو دليل مستنبط من القرآن الكريم .

يقول الأشعرى : (إن سأل سائل فقال : ما الدليل على أن للخلق صانعا صنعه ومدبرا دبره ؟ قيل له : الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية التمام والكمال ، كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظما ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلي حال لأنا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ، ولا أن يخلق لنفسه جارحة ، يدل ذلك على أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز ، لأن ما قدر عليه في حال النقصان فهو في الكمال عليه أقدر ، وما عجز

---

(1) محمد سعيد البوطي : *كبري اليقينيات الكونية.* ص84 .

عنه في حال الكمال فهو في حال النقصان عنه أعجز ، ورأيناه طفلا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا ، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلي حال الكبر والهرم ، لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلي حال الشباب لم يمكنه ذلك ، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال ، وأن له فاعلا نقله من حال إلي حال ، ودبره على ما هو عليه ، لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلي حال بغير ناقل ولا مدبر .... إلي أن يقول .. وقد قال الله / تعالى / : (أ فرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون [1]) . فما استطاعوا أن يقولوا بحجة أنهم يخلقون ما يمنون مع تمنيهم الولد فلا يكون ، ومع كراهيتهم له فيكون . وقد قال الله / تعالى / منبها لخلقه على وحدانيته : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون [2]) ، بين لهم عجزهم وفقرهم إلي صانع صنعهم ، ومدبر دبرهم [3] .

وهكذا صاغ الأشعرى ــ رحمه الله تعالى ــ هذا الدليل صياغة محكمة تدل على عبقريته ومقدرته في استنباط البراهين العقلية من القرآن الكريم .

---

(1) *سورة الواقعة : الآيتان 61-62*

(2) *سورة الذاريات الآية رقم 21*

(3) *الأشعرى : اللمع . تعليق وتقديم د. حمودة غرابة ص 17 – 19 .*

وقد انتقد أبو الوليد محمد بن رشد (ت 595 هــ) طريقة المتكلمين في الاستدلال على وجود الله / تعالى / وأشار إلي أن الأولي هو الاستدلال على وجوده / تعالى / بالقرآن الكريم والوحي الإلهي ، من مثل : دليل العناية ، ودليل الاختراع أو السببية .

فالدليل الأول ــ وهو دليل العناية ــ معناه أن جميع الموجودات المشاهدة موافقة لوجود الإنسان ، فمن موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر لوجود الإنسان إلي موافقة الأزمنة والأمكنة والحيوان والنبات ، ...الخ .

وأما دليل الأختراع فيدخل فيه وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، وغير ذلك ، وكل هذه الموجودات مخترعة ، ولابد لها من موجد ومخترع [1] . وهذا الدليل الأخير هو بعينه ما استدل به الأشعرى ــ كما عرفت ــ .

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التي تتضمن دليلي العناية والاختراع . فقد اهتم ابن رشد بهذين الدليلين ، واعتبرهما من أهم الأدلة على وجود الله / تعالى / ، ويرى أنهما صالحان لعامة الناس وخاصتهم ، وأنهما يفوقان أدلة الأشاعرة والمعتزلة [2] . ...

---

(1) *انظر : ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص 45 – 46 .*

(2) *ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة. ص 48 – 49 .*

ومن هنا فإن ابن رشد حاول أن يتهم الأشاعرة بأنهم قالوا إن دلالة الموجودات على الله ــ تبارك وتعالى ــ ليس من أجل حكمة فيها تقتضي العناية ولكن من قبيل الجواز ، أي من قبل ما يظهر في جميع الموجودات أنه جائز في العقل أن يكون بهذه الصفة وبضدها .

وهذا الاتهام غير صحيح بالمرة ــ من وجهة نظري ــ ، ذلك لأن الأشاعرة لم ينكروا الحكمة في صنع الكون من جانب الله / تعالى / ، وهم ــ وإن جوزوا وجود عالم غير هذا العالم الموجود ــ فما كان إلا لتوضيح القدرة الإلهية اللامتناهية في خلق ما لا يتناهى من العوالم المختلفة فليس عندهم حتمية في العالم ، وليس هناك نظام لا يستطيع الله أن يخرج عليه أو يكون مفروضا عليه ، وهذا ما يتمشى مع فكرتهم الصائبة في مبدأ السببية القائم على عدم الرابطة الضرورية بين السبب والمسبب ، فليس في العالم فاعل في الحقيقة إلا الله / تعالى / وحده الذي هو السبب في إيجاد كل شئ الفعال لما يريد .

أما ما يقوله ابن رشد من وجود الترتيب والنظام والقول بالرابطة الضرورية بين السبب والمسبب فهو لا يتمشى ــ حسب تقديري ــ مع القدرة الإلهية اللامتناهية [1] .

---

(1) انظر : *الجانب الإلهي عند ابن سينا* للمؤلف ص88-90

3 ــ مسلك الفطرة والبداهة :

من الأدلة التي اعتمد عليها العلماء في الاستدلال على وجود الله / تعالى / دليل الفطرة الإنسانية . والفطرة بمعناها الشامل تعني الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته ، فهي مغروسة في الإنسان غرسا خلقيا ، قارنته وسارت معه منذ أن وجد .

فما من نفس إلا وهى مطبوعة على معرفة طابعها ، مفطورة على حب فاطرها ، مؤمنة بوجود خالقها وبارئها . فالفطرة هي سجية طويت عليها النفوس ، وطبعت عليها القلوب [2].

وأدنى التفات من العاقل غير المتعصب إلي نفسه أو إلي ما حوله يسوقه إلي الاعتراف بوجود الله / تعالى / وقدرته وعظمته .

وقد استدل بعض العلماء على أن الفطرة تحكم بوجود الخالق بدليل قوله / تعالى / : ((ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن

---

(2) انظر : *ايراهيم عبد الباقي : البيان في تصحيح الايمان* ص10

خلقهن العزيز العليم [1]) ، وقوله / تعالى / : ((ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون [2])

فالمشركون يعرفون أن هذا الخلق العظيم من السموات والأرض وما بينهما لابد أن يكون هناك خالق خلقه ، ومدبر دبره ، لأن فطرتهم التي فطرهم الله عليها تقر بذلك ، إلا أن اتباعهم لآبائهم وأسلافهم وتعنتهم واستكبارهم كل ذلك منعهم من إتباع فطرتهم والاعتراف بالخالق — جل وعلا — .

ويشير عباس العقاد إلي أن مسألة وجود الله / تعالى / هي مسألة وعى قبل كل شئ فالإنسان له وعى يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من وعى يقيني بالوجود الأعظم .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في إدراكه لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ، ومن ظاهره وباطنه وما يعيه ومالا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا محتاجا إلي التفصيل والتفسير .. فإذا قالت البداهة العقلية : (نعم هناك إله) فهذا القول له قيمته في النظر

---

(1) سورة الزخرف : الآية 8

(2) سورة الزخرف : الآية 87

الإنساني لا تقل أهمية عن قيمة المنطق والقياس [1] . فالإيمان بالله تعالى غرزى في الإنسان مودع في أصل خلقته وثنايا جبلته .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله / صلى الله عليه وسلم / : { ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ، ثم يقول أبو هريرة — رضى الله عنه — : اقرأوا إن شأتم : ((فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم [2]) [3] }

ففي هذا الحديث الشريف يعلن الرسول الكريم / عليه الصلاة والسلام / أنه ما من مولود يوجد على حال من الأحوال إلا يوجد على حال الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهى قبول الحق وتمكينهم من إدراكه لو خلى بينهم وبينه دون معارضة أو ترغيب أو تضليل وتغطية وجه الحق وإظهار الباطل في ثوب الحسن الجميل كما يصنع الأبوان اليهوديان أو النصرانيان أو المجوسيان حين يولد لهما مولود فإنهما يصرفانه عن الفطرة التي ولد عليها ، ويعلمانه ما هما عليه ويرغبانه

---

(1) عباس العقاد : (الله) صفحة رقم 209 — 210 .

(2) سورة الروم : جزء من الآية رقم 29 .

(3) مسند الامام أحمد. ج2 ص346 .

فيه ، بل يدفعانه إلي ذلك ليصير على ملتهما ، فهما يفسدان طبعه الأصلي بتغطية الحق عنه والتمويه عليه .

وقد ضرب الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / مثلا واضحا للعيان ، فشبه التغيير الذي يحدثه الوالدان في المولود بعد أن خلق على الفطرة بالتغيير الذي يحدث للبهيمة بجدعها بعد أن ولدت سليمة البدن والأعضاء (1) .

ومعني الفطرة يحتمل أن يكون هو قبول الحق وتمكينهم من إدراكه ، أو هي ملة الإسلام ، فإنهم لو تركوا وما خلقوا عليه لأداهم ذلك إلي الإسلام ، لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية ، ومنها التقليد والتنصير والتهويد والتمجيس وغيرها .

وعليه فإن إيمان الفطرة مركوز في النفس كامن فيها غير أنه يحتاج إلي ما يستثيره ويخرجه من مكمنه ، وذلك بالدعوة إلي الدين الحق والحث على اتباع مبادئه ومناهجه .

والإيمان بالله / تعالى / من الأمور التي تصل إليها العقول السليمة بكل يسر وسهولة إذا ما ابتعدت عن الهوى والتعصب .

---

(1) *انظر : د. موسى لاشين : المنهل الحديث في شرح الحديث ج2 ص77 .*

فإن الإنسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك لابد أن يستند إلي الإله ، يتضرع نحوه ويلجأ إليه في كشف بلواه ، ويسمو قلبه صعودا إلي السماء ، ويشخص ناظره إليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلق أجمعين ، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعا وجبلة لا تكلفا وحيلة .

والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالموجود / تعالى / لما اعتقدوه من الشركاء لله / تعالى / أو لنفي واجب من صفاته ، أو لإثبات مستحيل منها ، أو لإنكارهم النبوات (1) .

إن الإيمان بالله / تعالى / كامن في نفس الإنسان ومغروس في طبعه وجبلته لا يختلف فيه إنسان عن إنسان آخر إلا بمقدار ما يختلفان في عوامل البيئة والتربية والوراثة ، وفي درجة المؤثر العائق الذي يحول بينهم وبين فطرهم السليمة .

ولتلك العوائق والمؤثرات التي تحول بين الناس وفطرهم يمكن تفسير انصراف كثير منهم عن الإيمان الصحيح والاعتقاد الحق بوجود الله / تعالى / الواحد الأحد ، والإيمان الكامل برسول الله محمد / صلى الله عليه وسلم / إن كثيرا منهم اتجهوا إلى العقائد الزائفة الباطلة ، ونسوا العقائد الحقة الصحيحة ، إنهم اندفعوا بكل قوة إلي التعامل مع الماديات المحسوسة الملموسة ، وأسرفوا في ذلك ، وأغفلوا عقولهم وفطرهم عن كل ما عداها من قيم روحية ومثل إنسانية ومبادئ سلوكية ، وأنكروا كل

---

(1) *أنظر : القاسمي. دلائل التوحيد ص 16 .*

ما عدا المحسوس من موجودات ، وبذلك غالطوا أنفسهم ، وخالفوا طبائعهم وفطرهم ؛ وحكموا حكما لا يرتضيه العقل السليم ، ولا البصيرة النافذة بأنه لا موجود إلا المحسوس ، وأن كل مالا يناله الحسن بجوهره ففرض وجوده محال ، وهذا - كما ترى - من أوهام الغلط ، وتصوير الإنسان غير السوي ، وتقدير العقل غير المكلف ، وإلا فإن في مقولتهم — هذه — إنكارا لذواتهم ولكيانهم ذاته ، بل لكثير من الأشياء التي نؤمن بها ولا نستطيع رؤيتها أو إحساسها .

ومن هنا فإن نزعة الإلحاد وإنكار الألوهية في الأمم والجماعات إنما يرجع إلي نوع من الانحراف الفكري والعقدي سببته عوامل البيئة والوراثة والمؤثرات الأخرى ، وهذا الانحراف يفسد الفطرة ، ويميل بها عن سواء السبيل وصراط الله المستقيم الذي ينبغي أن يكون هو المتبع دائما : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله[1]) .

ولكن هل يعني القول بأن وجود الله / تعالى / أمر فطرى في النفوس القول بأنه تعالى بدهي ولا يحتاج إلي فكر واستدلال ؟ والجواب على ذلك : أن علماء التوحيد يقولون إن وجود الله / تعالى / يثبت عن طريق الاستدلال ، وطريق الوصول إلي معرفة الله / تعالى / هي النظر في آثاره يرشدنا إلي ذلك القرآن الكريم .

---

(1) *سورة الأنعام : جزء من الآية رقم 154 .*

فالمقصود بالاستدلال استدلال الإنسان بُما نبه عليه القرآن من البراهين الدالة على وجوده التي تنتهي إلي أن الضرورة قاضية بأن هذه السموات الأرض والمخلوقات التي لا تحصي لابد لها من خالق ، إذ أن وجود الشي عن فاعل ، أو فكرة السببية أمر بدهى في فطرة الإنسان [1].

ويرى علماء السلف أن معرفة الله / تعالى / ضرورية ولا تحتاج إلي نظر واستدلال ولعل فيما سلف يفهم منه التوفيق بين الاستدلال والضرورة .

ولا أدرى كيف يهاجم بعض المؤلفين المحدثين مناهج علماء التوحيد في الاستدلال على وجود الله / تعالى / ويصرون على أن نداء الفطرة ، وأدلة القرآن الكريم على وجود الله / تعالى / كافية في الاستدلال .!!

والسؤال هو : هل استدلالات علماء التوحيد خارجة عن هذا النطاق ؟

إن ما استدل به علماء التوحيد على وجود الله / تعالى / وإثبات صفاته العلية لا يخرج في جوهره ومضمونه عن أدلة القرآن الكريم ، والناظر في مؤلفات علماء التوحيد يجد أن كل أقوالهم وتقريراتهم واستنتاجاتهم لا تخرج في مضمونها عن هذا الإطار .

---

(1) *انظر: صالح الزركان . فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص 197 .*

فمثلا عندما يستدلون بدليل الحدوث ــ كما سبق ــ فإنما يبنون هذا الدليل على أساس أن هناك خالقا ومخلوقا ، أو سمه إن شئت صانعا ومصنوعا أو قديما وحادثا .

والناظر في القرآن الكريم يجد فيه آيات كثيرة في هذا المعنى ، انظر إلي قول الله / تعالى / : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [1]) .

ففي هذه الآية الكريمة ــ ونحوها ــ يوجه المولي / عز وجل / نداءه إلي الناس بأن يعبدوه وحده لأنه هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم . فإذن هناك خالق ومخلوق ورب ومربوب .

وعلماء التوحيد نظموا دليلا لوجود الخالق رب العالمين على أساس أن لكل مخلوق خالقا ، ولكل حادث محدثا وهو الله / جل شأنه / .

غاية ما فيه أن هؤلاء العلماء ساروا على منهج الاستدلال العقلي ، وزادوا من الأقيسة المنطقية مما جعل كثيرا من الناظرين فيها يعتقدون أنها خارجة عن أدلة القرآن الكريم ، وهذا فهم بعيد عن الصواب ــ من وجهة نظري ــ .

ثم إن المنتقدين لعلماء التوحيد ومناهجهم في موضوعات هذا العلم يفيدون منهم من حيث لا يشعرون ، ويسيرون على مناهجهم من حيث لا يدرون .

---

(1) *سورة البقرة: الآية 20* .

وإلا فكيف يذكرون في مؤلفاتهم الاستدلال على أن مخلوقات الله / تعالى / ومصنوعاته تدل على وجود صانعها وخالقها ، ويسترسلون في ذلك مستشهدين بأقوال العلماء المحدثين من أطباء ومهندسين وجيولوجيين وعلماء رياضة وفلك الذين أثبتوا من خلال دراساتهم أن لهذا الكون خالقا عظيما ومدبرا حكيما ؛ وهو نفس ما توصل إليه ــ منذ مئات السنين ــ علماء التوحيد ، مثل أبي الحسن الأشعرى ، وأبي حامد الغزالى ، وفخر الدين الرازى ، والجويني ، والباقلاني وغيرهم من العلماء الأجلاء - رحمهم الله تعالى ــ .

نعم إن وجود الله / تعالى / في حكم البدهيات الأولية والمسلمات العقلية ، وما كان كذلك لا يطالب بإقامة الدليل عليه إلا المكابر ، كالأعمى الذي يطلب إقامة الدليل على وجود الشمس أثناء النهار في فصل الصيف .

فهل علماء التوحيد الذين استدلوا على وجود الله / تعالى / عمي لا يبصرون ؟

إن الباحث المنصف لا يمكن له إلا أن يسلم بأن علماء التوحيد ليسوا عميا لا يبصرون ، بل هم ذوو بصيرة نافذة ورأى مستنير ، ويعلمون علما يقينيا بأن وجوده / تعالى / ظاهر للعيان ، ولا يحتاج إلي دليل وبرهان ، وإنما ساقوا ما ساقوا من الأدلة والبراهين ما يهدى إلي الحق ، ويكشف عن وجه الصواب ، مسترشدين بالقرآن الكريم . وسنة خير المرسلين محمد / صلى الله عليه وسلم / موجهين تلك الأدلة والبراهين

نحو المعاندين والملحدين والزنادقة الذين لا يؤمنون بالنص والوحي المنزل ، مفرقين في نفس الوقت بين العقيدة التي هي واضحة كل الوضوح والتي ينبغي أن تؤخذ من القرآن الكريم ومن السنة النبوية ، وبين الردود العلمية والمصطلحات المنهجية التي هي موجهة ضد الزنادقة والملحدين في كل عصر ومكان .

وأخيرا فإن علماء التوحيد قد أثروا الفكر الإسلامي ، ودافعوا عن العقيدة الإسلامية بكل قوة ، وتغلبوا على الخصوم ، وهذا أمر لا ينكره إلا مكابر أو جاحد .

وإذا كانت الشبه والأبحاث التي وجدت في الماضي لا مكان لها اليوم ، فإن المنهج لا يختلف وإن اختلفت أنواع الشبه والخداع .

المبحث الحادي عشر
صفات الله تعالى

المبحث الحادي عشر

صفات الله تعالى

مما يجب الإيمان به إيمانا جازما إن الله / تعالى / متصف بكل صفات الكمال ، ومنزه عن جميع صفات النقصان ، فالله / تعالى / يجب أن يتصف بكل كمال ، وينزه عن كل نقص ، إذ أن صفات الكمال من مقتضيات كمال ربو بيته وعظمة ألوهيته ،

وقد وصف المولي / تبارك وتعالي / نفسه في كتابه الكريم بصفات كثيرة متنوعة ، إلا أن معاني هذه الصفات الكثيرة تدخل تحت معني عشرين صفة رئيسة ثبتت بدلالة القرآن الكريم ، وبالبراهين العقلية .

وبهذا فإن متأخري علماء التوحيد يقولون إن من الصفات ما يجب معرفته تفصيلا ، وهو ما قام الدليل التفصيلي عليه ، وهي عشرون صفة ، ومنها ما يجب معرفته إجمالا ، وهو كل كمال يليق بذات البارى عز وجل .

وقد جرت عادة المتكلمين — المشار إليهم — أن يقسموا الصفات إلي نفسية وسلبية ومعان ومعنوية ، وجعل المعنوية قسما منها بناء على القول بالأحوال (أي الواسطة بين الموجود والمعدوم) .

وفي حديثنا عن صفات الله / تعالى / لا نتعرض للخلاف الذي دار بين علماء الكلام فيما يتعلق بزيادة الصفات على الذات لأنها ليست من

الأصول التي كلفنا باعتقادها ، ولهذا فإن الوقف فيها أنسب وأسلم للإنسان المسلم ، ذلك لأن العقل البشري قاصر عن إدراك ذلك كله ، فهو لا يستطيع أن يصل إلي كنه ذات الباري ــ عز وجل ــ ، كما لا يستطيع اكتناه الصفات ، ويكفينا اعتقاد أن نعلم أنه متصف بها ، وأما ما وراء ذلك فهو مما استأثر الله به .

** أولا ــ الصفة النفسية.

المراد بالصفة النفسية هي صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معني زائد عليها ، وهي صفة واحدة هي الوجود ، أي هو الموجود الحق لذاته .

ومعني الوجود بدهى يدركه الإنسان والحيوان ، فإن الحيوان إذا سمع صوتا يدرك أن صاحبه موجود ، فمن عرف الوجود بأنه هو الثبوت ــ ونحوه ــ فإنما أراد التمثيل له بذكر شئ من خواصه .

وقد تقدم لنا فيما يتعلق بوجود الله / تعالى / وأدلة وجوده ، وهي نفس الأدلة والبراهين لمسألة الوجود ، حيث إن صفة الوجود ليس شيئا آخر غير ذاته ــ جل شأنه ــ .

فوجود المولي / سبحانه وتعالي / وجود كامل دائم ذاتي بمعني أنه موجود لذاته لا لعلة مؤثرة فيه ، ومن خصائص الوجود الذاتي أنه لا يقبل العدم .

** ثانيا ــ الصفات السلبية.

والمراد بالصفات السلبية كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق بالله ــ عز وجل ــ وإنما نسبت هذه الصفات للسلب لأن حقيقة كل واحدة منها سلب نقص لا يليق به / سبحانه وتعالي / وهي ليست صفات موجودة في نفسها كالعلم والقدرة ونحوهما من سائر صفات المعاني ــ الآتي ذكرها ــ والمقصود بالسلب النفي بمعني الانتفاء [1] .

وهذه الصفات ليست منحصرة ، لأن جزئياتها كثيرة ، غير أن هنالك خمس صفات هي أمهات الصفات السلبية كلها ، فيكتفي بها عما سواها من الجزئيات لأنها راجعة إليها .

1 ــ القدم ، فهي صفة سلبية معناها عدم افتتاح الوجود ، أو عدم أولية الوجود وكلها بمعني واحد ، أي أنه / تعالى / قديم لا أول لوجوده ، وأن وجوده غير مسبوق بعدم ، فالقدم هو سلب أولية الوجود .

فالله / تعالى / هو الموجود الذي سبق وجوده كل وجود ، فكان ــ تعالى ــ وحده ولا شئ معه ، ثم خلق ما شاء من مخلوقاته بكلمة منه .

والدليل من القرآن الكريم على أن الله ــ تعالى ــ قديم لا أول له قوله ــ جل شأنه ــ : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ

---

(1) *انظر : عبد العزيز جاب الله . الدليل الصادق. ج1 ص86 – 87* .

عليم [1]) .

ومعني ذلك أن الله ــ سبحانه وتعالي ــ لا أول لوجــوده ولا آخــر لوجوده ، فهو ــ سبحانه ــ أزلي وأبدي لا يسبقه عدم ، ولا يلحقه فنــاء ، الظاهر بآثاره الدالة على وجوده ، الباطن الذي لا تدركــه الحــواس ، ولا تحيط بذاته العقول .

ولعل سائلا يسأل ــ هنا ــ كيف وصف علماء التوحيد الله /تعــالى/ بصفة القدم مع أنها لم ترد في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية ؟ .

والجواب على ذلك أن المسلمين قد أجمعوا على صحة إطلاق نحــو القديم ، والواجب ، والموجود على الله / تعالى / والإجمــاع يعتــبر مــن الأدلة الشرعية ، بالإضافة إلي أن في قولــه / تعــالى / : (ومــا نحــن بمسبوقين [2]) . إشارة إلي وصفــه تعالي بالقدم ، بمعنــي أن وجــود الله / تعالى / غير مسبوق بعدم ، والقدم ــ كما تقدم ــ معنــاه ســلب العــدم السابق على الوجود [2]) .

---

[1] سورة الحديد. الآية رقم 3 .

[2] سورة الواقعة. جزء من الآية رقم 63 .

[2] انظر : توضيح العقائد. عبد الرحمن الجزيري ص75 .

2 ــ ***البقاء*** ، الصفة الثانية من الصفات السلبية البقاء ، ومعنــاه امتناع لحوق العدم بذاته -جل جلاله - أو بمعني آخــر أن وجــود الله / تعالى / ليس له آخر ، كما أنه ليس له أول ، فمعني كــون الله / تعــالى / باقيا أنه لا آخر لوجوده .

وقد ورد وصفه ــ تعالى ــ بالبقاء في القرآن الكريم فــي قولــه / تعالى / : (كل من عليها فان ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكــرام [1]) ، وفي قول/ تعالى / : (كل شئ هالك إلا وجهه [2]) .

فهذه الآيات الكريمة ــ وغيرها ــ تدل بأجلى بيان علــى وجــوب وجوده ولوازم هذا الوجود من القدم والبقاء ، فإن للواجب أحكاما لا تنفــك عنه من حيث هو واجب ، ومنها البقاء ، فإن ما يقبــل الفنــاء لا يكــون وجوده لازما من لوازم ذاته لذاته . إذن فواجب الوجود متصــف بصفــة البقاء .

3 ــ ***مخالفته تعالى للحوادث*** .

ومعناها عدم المماثلة والموافقة لشي من الحوادث في الذات ، وفــي الصفات ، وفي الأفعال .

---

[1] سورة الرحمن . الآيتان 27 – 28 .

[2] سورة القصص الآية 88 .

فمخالفته ــ تعالى ــ للحوادث ثابتة بالنقل والعقل ، فأما النقل فقد قال الله ــ تعالى ــ : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[1]) ، أي ليس كذاته شئ ، فالآية الكريمة نفت أن يكون له شبيه على أبلغ وجه بطريق الكناية فإن معناها ــ والله أعلم بمراده ــ ليس كهو شئ ، أي نفي المثلية عنه / تعالى / ، وإدخال كاف التشبيه على لفظ المثل مبالغة في نفي الشبيه والمثل لله ــ جل جلاله ــ .

ويقول الله / تعالى / : (ولم يكن له كفوًا أحد[2]) ومعني (كفوًا) في الآية الكريمة المماثل ، فهذه الآية ــ كذلك ــ تنفي المثلية عن الله / تعالى / في أوضح عبارة وأبلغ بيان .

وأما الدليل العقلي فلأنه لو أشبه شيئا من خلقه لكان حادثا لا يصلح أن يكون مصدرا لإيجاد الممكنات ، وقد ثبت قدمه / تعالى / بالدليل ، فالله / تعالى / ــ إذا ــ منزه عن الشبيه والنظير ومتعال عن صفات الحوادث علوا كبيرا .

ثم إن المماثلة قد يراد بها الاتحاد في الحقيقة فيقال هذا مثل ذاك ، بمعني أن حقيقتهما واحدة ، وبدهى أن هذا المعني يستحيل على الله / تعالى / لأن حقيقة الإله الواحد يستحيل أن تكون مماثلة لحقيقة

---

(1) سورة الشوري. جزء من الآية رقم 9 .

(2) سورة الإخلاص . الآية رقم 4 .

الحوادث ، وقد يراد بها أن أحد المثلين يحل محل الآخر في وصف من الأوصاف وإن لم تكن حقيقتهما واحدة ، وهذا أيضا محال لأن صفات الله لا يمكن أن تماثلها صفات أحد من خلقه في شئ فإن العلم الحادث ــ مثلا ــ له حد ينتهي إليه ويقف عنده ، أما علم الله / تعالى / فإنه محيط بالكائنات جملة وتفصيلا وقس على ذلك بقية صفات الباري ــ تبارك وتعالى ــ .

4 ــ صفة القياس بالنفس .

الصفة الرابعة من الصفات السلبية قيامه / تعالى / بنفسه ، ومعناها استغناؤه / تعالى / عن المحل والمخصص ، فالله / جل شأنه / لا يفتقر إلي محل أي ذات يقوم بها ، ولا يحتاج إلي مخصص أي موجد يوجده ، قد كان الله / تعالى / قبل وجود أي شئ ، وقبل وجود الزمان والمكان فالله / جلت قدرته / لا يحتاج إلي مكان يحل فيه ، ولا يحتاج إلي فاعل يخصصه ببعض ما يجوز عليه كتخصيص الممكنات فهو الغني عن كل من وما سواه ، يقول المولي / تبارك وتعالى / : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلي الله والله هو الغني الحميد[1]) .

---

(1) سورة فاطر. الآية 15 .

والدليل على ثبوت هذه الصفة لله /تعالى/ قوله /عز وجـــل/ : (الله الصمد [2])

فالصمد هو الذي لا يحتاج إلي شئ ويحتاج إليه كـل شـئ (فـهو المقصود وهو المصمود إليه في كل الأمور أي أنه المقصود في الرغـائب المستعان به عند المصائب [1]) .

فالله / جل شأنه / هو الذي يتوجه إليه الخلق ويطلبون منــه العـون والتوفيق والسداد ، لأن الإنسان – باعتباره مخلوقا – دائما في حاجة ماسة إلي الله / تعالى / الخالق الغني الحميد تقدست أسماؤه .

5 ــ *الوحدانية* .

وهي الصفة الخامسة والأخيرة من الصفات السلبية ، ومعناها سـلب تصور الكمية في ذاته وصفاته / تعالى / وبعبـارة أخـرى فـإن معنـي الوحدانية عدم التعدد ، وهي أنواع : وحدة الـذات ، ووحـدة الصفـات ، ووحدة الأفعال .

أما وحدة الذات فمعناها عدم تركب الذات من أجزاء ، وكذلك عـدم وجود ذات تماثل وجود ذاته تعالي .

---

(2) *سورة الاخلاص. الآية 2* .

(1) *انظر : فخر الدين الرازى . التفسير الكبير مجلد 8 ص 534 – 535* .

وأما وحدة الصفات فمعناها عدم وجود صفتين فأكثر من جنس واحد له تعالي كقدرتين ، وقدرات ، وإرادتين وإرادات ، وكذلك عـدم وجـود صفة لغير الله / تعالي / تماثل صفته ــ عز وجل ــ .

وأما وحـدة الأفعال فمعناها عدم وجود فعل لغير الله يماثـل فعلـه / سبحانه وتعالي [1] / .

بناء على ما تقدم فإن المقصود بوحدانية الله / تعالي / الجزم واليقين بأنه جلت قدرته ليس كلا مركبا من أجزاء ، ولا كليا مكونا من جزئيـات . والدليل على ذلك قوله / تعالي / : (قل هو الله أحد [2]) . فالله / تعـالي / أحد أي أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله فقد نفت هذه الآيـة الكريمـة ــ بإسناد صفة الوحدانية إليه تعالي ــ كلا من صفة الكل والكلية عنه ، فقولـه / تعالي / : (أحد) دال على أنه واحد وحدة مطلقة وهي صفة من صفـات الله / تعالي / استأثر بها فلا يشاركه فيها شئ [3] .

فقـد بين الله / عز وجل / أولا ألوهيته المسـتتبعة لكافـة نعـوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجـه مـن الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ، ثم صمديته المقتضيـة

---

(1) *انظر : مذكرة التوحيد. حسن السيد متولي ص53 – 54* .

(2) *سورة الإخلاص آية 1* .

(3) *انظر : الرازي التفسير الكبير مجلد8 ص 533* .

لاستغنائه الذاتي عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه فـــي وجودهـا وبقائها وسائر أحوالها تحقيقا للحق [4] .

والدليل على أن الله واحد لا شريك له قوله / تعالي / : (لـو كـان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا [1]) .

ففي هذه الآية الكريمة بين المولي / عز وجل / أنه لـو كـان فـي السماوات و الأرض آلهة تدبر أمرهما وتتصرف فيهما غير الله / تعـالي / الخالق لهما والمدبر لأمرهما لاختل نظامهما ولم توجـدا بـالمرة وذلـك لتنازع المدبرين لهما ، إذ أنه لا يمكن الاتفـاق بين الآلهة بدليـل قولـه / تعالي / : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بمـا خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون[2]) .

فقوله / تعالي / : (ما اتخذ الله من ولد) هو كالتنبيه على أن ذلـك من قول هؤلاء الكفار فإن جمعا منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالي الله عن قولهم علوا كبيرا ، وقوله / تعالي / : (وما كان معه مـن إلـه) وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة ، ثم ذكر الحجـة الظاهـرة البينة بقولـه : (إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) فـالله / تعـالي لا

---

(4) انظر: تفسير أبي السعود على هامش الرازى مجلد8 ص 541 .

(1) سورة الأنبياء . آية 22 .

(2) سورة المؤمنون. الآية 92 .

ينبغي أن يكون معه إله لأنه لو كان معه إله يشاركه في الألوهية ، ويخلـق معه لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، والمعنـــي لغـالب بعضهم بعضا ليوسع ملكه ، ولو حصل هذا لفسد نظام العالم ، وأيضا لــو كان معه آلهة كما يزعم المشركون الذين اتخذوا الأصنام آلهة مـن دون الله / تعالي / لطلبوا مغالبة الله / تعالي / ومزاحمته جل شـأنه ، يقـول الله / تعالي / : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلـي ذي العـرش سبيلا سبحانه وتعالي عما يقولون علوا كبيرا [1]).

فقوله تعالى : ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)) هو حجة قطعيـة لأن المراد بفساد السموات والأرض في الآية عدم تكونهما ، ويكون الدليـل على هذا أنه لو فرض صانعان لأمكن بينهما تمانع في الأفعال فلـم يكـن أحدهما صانعا فلم يوجد مصنوع ، لأن التعدد يسـتلزم إمكـان التمـانع ، وإمكان التمانع يستلزم أن لا يكون أحدهما صانعا فلم يوجد مصنوع .

ومن هنا فإن هذه الآية حجة قطعية على وحدانية الباري ، وإن قـال بعض علماء التوحيد أنها جرت مجرى الأدلة الخطابية لتوجيه القول فيـها إلي الخاصة والعامة ، فقد أشار هؤلاء إلي أن الاختـلاف بيـن الإلـهين الاثنين أو بين الآلهة الكثيرة غير لازم عقلا لجواز الاتفـاق وهـو زعـم

---

(1) سورة الاسراء. آية 43 .

ظاهر البطلان كما يقول العقاد[1] . لأن الكمال المطلق لا يكون كمالين مطلقين ، والآلهة المتعددة فهي إن أطاعت الله ولم تخرج عن قضائه وقدرته فحكمها حكم المخلوقات ، وإن كانت لا تطيعه فهي تتازعه وتبتغي ، (إلي ذي العرش سبيلا)) فلا يستقيم على ذلك أمر الوجود .

مما تقدم يتضح لنا أن الله تعالى واحد في ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وأن أساس عبادة الله توحيده / عز وجل / والشهادة له بأنه لا معبود بحق إلا هو الواجب الوجود الواحد المتفرد بالعبودية المتصف بكل صفات الكمال والجلال لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شئ من خلقه ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[2])) ، ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم [3]) .

فالله الواحد هو المعبود بحق وما سواه باطل ، بهذا جاء القرآن في العديد من آياته الكريمة ، منها قوله / تعالى / : (واعبدوا الله ولا تشركوا

---

(1) في كتابه الفلسفة القرآنية ص 101 – 102 .

(2) سورة الشورى. الآية 11 .

(3) آل عمران . الآية 18 .

به شيئا [1]) ، ومنها قوله / تعالى / : ((ولقد أرسلنا نوحا إلي قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون [2]) .

إن توكيد القرآن الكريم لوحدانية الله / تعالى / كتوكيده لوجود الله ، بل هو أشد وألزم في عقيدة الإسلام لأن الإيمان بالله الأحد ألزم من الإيمان بالعقيدة الإلهية على إطلاقها ، فالإيمان بأكثر من إله واحد مفسد لفهم الكون ، ومفسد لفهم الضمير ، ومفسد لفهم الواجبات الأدبية والفرائض الدينية ، ومفسد لعلم الإنسان بحقيقة الإنسان [3] .

إن وحدانية الله / تعالى / والدعوة إلي عبادته وحده / سبحانه وتعالى / هو أمر انعقد عليه إجماع الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / إذ أنهم دعوا المكلفين إلي التوحيد ، ونهوهم عن الإشراك في العبادة ، ورسالات السماء كلها جاءت للتعريف بالله الواحد الأحد وكشف معالم الطريق إليه ، فكل الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / منهجهم منهج واحد وطريق واحد لأنه أعدل منهج وأقوم طريق إنه الدعوة إلي عبادة الله الواحد الأحد .

---

(1) سورة النساء. الآية 36 .

(2) سورة المؤمنون. الآية 23 .

(3) انظر : العقاد. الفلسفة القرآنية ص 101 .

** ثالثا ـ صفات المعاني.

المراد بصفات المعاني كل صفة قائمة بذاته عز وجل ، تستلزم حكما معينا له ، كصفة القدرة مثلا ، فهي تستلزم أن يكون المتصف بها قادرا .

وصفات الكمال لله / جل جلاله / كثيرة ، وقد بين علماء التوحيد الذين أثبتوا صفات المعاني لله / تعالى / أن صفات الكمال له / جل وعلا / تجتمع في سبع صفات رئيسة معينة ، قام عليها الدليل التفصيلي من الكتاب ، وهذه الصفات السبع هي : العلم ، والإرادة ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والحياة .

ويرى الإمام الأشعري ـ بحق ـ : ((أن الأفعال المحكمة التي صدرت عن الخالق / جل وعلا / حين دلت على أنه عالم أو قادر دلت على علمه وقدرته ، إذ ليس معنى العالم سوى من له علم موجود ، وليس معنى القادر سوى من له قدرة حاصلة ، ومن لم يعلم لإنسان ما علما أو قدرة موجودة لا يستطيع وصفه بأنه عالم أو قادر ، وإذا فعلم الله وقدرته وغيرهما من الصفات الذاتية أمور وجودية أزلية قائمة بالله / عز وجل [1] / .

---

(1) *أبو الحسن الأشعرى اللمع في الردعلى أهل الزيغ والبدع.* تقديم د. حمودة غرابة ص 26 – 27 .

1 ـ القدرة .

تعريفها : القدرة لغة القوة والإستطاعة .

واصطلاحا : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة .

شرح التعريف : ((صفة أزلية)) والمراد بذلك أنها صفة قديمة ، وهذا كالجنس في التعريف تشمل جميع الصفات لأنها كلها قديمة . ((قائمة بذاته تعالى)) يخرج بهذا القيد ماعدا صفات المعاني لأن غير الموجود لا يقوم بالذات .

((يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه)) يخرج بهذا القيد ماعداها من صفات المعاني .

والمراد بأن القدرة يتأتى بها إيجاد كل ممكن أن صلاحيتها أزلا للإيجاد والإعدام فيما لا يزال ، والمعنى أن الله تعالى له القدرة المطلقة على إيجاد الممكنات وإعدامها ، فالتأثير كل التأثير حقيقة لله جل شأنه .

والقدرة تتعلق بجميع الممكنات ، ولا تتعلق بالواجب لما يلزم عليه من تحصيل الحاصل إن تعلقت بإيجاده ، أو قلب الحقائق إن تعلقت بإعدامه ، ولا تعلق لها بالمستحيل لما يلزم على تعلقها به لإيجاده من قلب حقيقته ، أو تحصيل الحاصل إن تعلقت بإعدامه .

ومعنى على وفق الإرادة في التعريف المذكـــور لبيـان أن تعلـق الإرادة يترتب عليه تعلق القدرة فما تخصصـــه وترجحـه الإرادة تـبرزه القدرة .

والدليل العقلي على وجوب القدرة لله / تعـالى / : أن العـالم فعـل محكم ، وكل فعل محكم فهو صادر عن فاعل قادر ، فالعالم صـادر عـن فاعل قادر[1] .

وهذا الدليل واضح المعنى من خلال مقدمتيه الصغرى والكبرى ، إذ أن صنع الله متقن ومحكم ، ويدل عليه الإحساس الظاهر والإدراك البـاطن والمقصود بإتقان صنع الله وإحكامه ما فيه من حسن الترتيب وكمال النظام وتناسب الأجزاء ، فكل من ينظر في نفسه ويتأمل في أعضائـه الظـاهرة وقواه الباطنة ، وكذلك كل من يتصفح الكون من حوله ، فإنه يدرك / فـي وضوح / ما في العالم من الإحكام والنظام ، وكل ذلك يدل على أن لـهذا العالم المحكم المنظم إلها قادرا له قدرة زائدة على ذاته بها يتـهيأ الفعـل للفاعل وبها يتحقق في الواقع[2].

إن إيجاد الأشياء من عدم محض ، وحفظ وجودها وتوجيهـها إلـي أداء وظائفها يدل على أن مبدعها قادر على ذلك كله بقدرة عامة شـاملة إذ

---

(1) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد / الغزالي / تحقيق :عثمان عيش ص 149 – 150 .

(2) نفس المصدر السابق ص 152 .

لو كان عاجزا — تعالى الله وتقدس — لما وجد شيء من ذلك أبدا وبـهذا ثبتت له / سبحانه / صفة القدرة الشاملة العامة .

والآيات الكريمة تبين / بكل وضوح / أن الله تعالى متصف بـالقدرة على إيجاد كل الممكنات غير المتناهية ، يقول الله تعالى ((تبـارك الـذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير [1]) ويقول / تعالى / (وربك الـذي يخلق ما يشاء ويختار[2]) ويقول الله / تعالى / ((الله الـذي خلـق سـبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله علـى كـل شيء قدير [3]) .

فالله / تعالى / لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادرا على جميـع الأشياء ، والقدير مبالغة في القادر وهو من ألفاظ المجانسة للقادر ، فلمـا كان قديرا على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه / البتة / مانع مـن إيجـاد شيء من مقدوراته .

ومن دلائـل القـدرة قوله /تعالى / ((الذي خلـق سـبع سـموات طباقا [4]) فخلق السموات بهذه الصفة التي نراها من حيث هي معلقة فـي

---

(1) سورة الملك آية 1 .

(2) سورة القصص : جزء من الآية رقم 68 .

(3) سورة الطلاق : جزء من الآية رقم 12 .

(4) سورة الملك. آية 3 .

الهواء بلاعمد ، ومن حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص ، ومن حيث كذلك أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة ، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بخلق السموات كل ذلك يدل / دلالة واضحة / على اتصاف الله / تعالى / بالقدرة التامة التي لا يعجزها أي شي [1] .

إن كتاب الله الخالد قد وضح لنا كثيرا من المظاهر على كمال قدرته ، ومن ذلك قوله / تعالى / ((أو لم يروا إلي الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن [2]) .

فالله / جلت قدرته / قد خلق الطير وسخرها للطيران في الهواء بكيفية خاصة بواسطة أجنحتهن في الجو عند طيرانها ويقبضن ويضمنها إذا ضربن بها جنوبهن ، وما يمسكهن إلا الرحمن وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه .

ومن ذلك قوله / تعالى / : ((قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون [3]) وهذه الآية / كسابقتها / دليل

---

(1) *انظر : الامام الرازي. التفسير الكبير مجلد 8 ص 170* .

(2) *سورة الملك. آية 19* .

(3) *سورة الملك آية 23* .

كامل وبرهان صادق على كمال قدرته ، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه / تعالى / قادرا على إيصال جميع أنواع العذاب إلي المكذبين بآيات الله / تعالى / .

لقد بين في هذه الآية الكريمة / أحوال الناس وكيف أمدهم بالسمع والأبصار والأفئدة ، وهى كلها عجائب تدل على القدرة التامة ، وكأن الله / تعالى / يقول : أعطيتكم هذه الاعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه ، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه وكأنكم ضيعتم هذه النعم ، وأفسدتم هذه المواهب ، فلهذا قال : (قليلا ما تشكرون) ، وذلك لأن شكر نعمة الله /تعالي/ هو أن نصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه ، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلي طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته البتة[1].

وبهذا تعلم أن التأمل اليسير في مصنوعات الله وعجائب مخلوقاته من خلق السماوات والأرض والليل والنهار والحياة والموت وما يجرى في الكون في كل لحظة كل ذلك وغيره يدل على قدرة الله الباهرة .

---

(1) *انظر : التفسير الكبير مجلد 8 ص 170 – 171* .

2 ــ الإرادة .

تعريفها : لغة القصد .

واصطلاحا : صفة أزلية قائمة بذاته / تعالي / من شأنها تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليها .

ومعني أن الإرادة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليها أن ما تتعلق به الإرادة إنما هو الممكن ، وجهة تعلقها تخصيصة وترجيحه ببعض ما يجوز عليها من الأمور المتقابلة المتنافية من وجود وعدم وتكيف بقطع النظر عن أى مؤثر خارجي ، فمثلا تخصص الإرادة وترجح " خالدا " بالوجود بدل العدم وبصفة البياض بدل السواد ، وبيوم الخميس دون غيره ، وبوجوده في مدينة الخمس دون بقية الأمكنة ، وبجهة المغرب دون المشرق ، وبكونه صغيرا دون كونه كبيرا ، وبكونه متعلما دون كونه جاهلا .

فإرادة الله نافذة في جميع مراداته على حسب علمه بها ، فما علم كونه (أراد كونه) في الوقت الذي علم أنه يكون فيه ، وما علم أنه لا يكون أراد أن لا يكون ، وأنه لا يحدث في العالم شئ إلا بإرادته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فصانع العالم مريد على الحقيقة عند أهل

الحق (1) .

وبهذا فإن الله يعلم في الأزل كل ما سيفعله وسيخلقه في الحين والوقت الملائمين لإرادته ومشيئته ، وهذا يعني بالضرورة أن إرادة الله التجيزية مصاحبة لعلمه القديم ، فهو / سبحانه وتعالي / يتصرف في الكون حسب إرادته ومشيئته وحكمته ، إذا فتعلق الإرادة الواقعي بمراد من المرادات هو ما يسمي بالإرادة التنجيزية .

والإرادة عامة التعلق بجميع الممكنات خيرها وشرها ، والخير ينسب إلي الله / تعالي/ والشر لا يجوز نسبته إليه تأدبا مع المولي / تبارك وتعالي / إلا في مقام التعليم .

وعليه فالإرادة لا تتعلق بالمستحيل والواجب لما عرفت في صفة القدرة . والدليل العقلي على وجوب صفة الإرادة لله / تعالي / هو أن الله صانع العالم بالاختيار وكل من كان كذلك تجب له الإرادة ، فالله تجب له الإرادة .

أو تقول إن صفة الإرادة لو لم تكن موجودة وأزلية قائمة به تعالي للزم عليه نقيضها وهو الإكراه ، وهو يستلزم مكرها ، وذلك ينافي واجب الوجود ومعني الألوهية (2) .

---

(1) *انظر في ذلك الفرق بين الفرق للبغدادي ص 366 ، وكذلك لمع الأدلة لامام الحرمين . تحقيق : د. فوقية حسين ص 83 .*

(2) *انظر : البوطي. كبرى اليقينيات الكونية ص 127 .*

وقد دلت آيات كثيرة على أن الله مريد ، ومن ذلك قوله / تعالي / : (إنما قولنا بشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون [1]). وقوله / تعالي / : (ذو العرش المجيد فعال لما يريد[2]) . وقوله / تعالي / : (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال [3]) .

3 ـــ *العلم* .

تعريفه : صفة أزلية قائمة بذاته / تعالي / تتكشف بها المعلومات انكشافا تاما لم يسبقه خفاء . فهذه الصفة القائمة بذات الله / تعالي / يتأتى بها كشف الأمور والإحاطة بها على ما هي عليه في الواقع ، أو على ما ستكون عليه في المستقبل ، شاملة لكل المعلومات من الواجبات والجائزات والمستحيلات ، فعلم الله / تعالي/ يتعلق بها كلها .

وهذه الصفة ليس من شأنها تخصيص الممكنات أو التأثير عليها بوجه من الوجوه ، ولكن شأنها مجرد الكشف والإطلاع ، سواء تعلق بواقع ظهر إلي الوجود ، أو بمغيب لا يزال في جوف العدم [4] .

---

[1] *سورة النمل. آية 40 .*

[2] *سورة البروج. الآيتان 15 – 16 .*

[3] *سورة الرعد. الآية 11 .*

[4] *انظر : كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص 125 .*

وعلمه / سبحانه وتعالي / بالمعلومات على ما هي عليه ، وكونها وجدت في الماضي ، أو موجودة في الحال ، أو توجد في المستقبل أطوار في المعلومات لا توجب تغيرا في العلم فالمتغير صفة المعلوم لا تعلق العلم ، فالله / تعالي / عالم بكل شئ وقد أحاط بكل شئ علما ، وعلمه لم يسبق بجهل ، ولا يعتريه نسيان ولا يتغير بزمان ولا مكان ، وعلمه كذلك متعلق بالأشياء كلياتها و جزئياتها المتناهي منها وغير المتناهي .

والدليل على أن الله /تعالي/ عالم بجميع المعلومات ؛ أنه فاعل فعلا متقنا محكما بالقصد والاختيار وكل من كان كذلك فهو عالم ، فالله / تعالي / عالم .

فدليل الإحكام والإتقان من أظهر البراهين على علم الله / تعالي/ ، ذلك لأنه هو الذي جاء به القرآن الكريم ، وشهدت به الفطرة السليمة وأيدته الحجج القوية ((فهذه المصنوعات والأفعال صنعها متقن وفعلها محكم ، وكل صنع متقن وفعل محكم يدلان على علم صانعهما ، فإن من رأى خطوطا منظومة تصدر على الإتساق من كاتب ، ثم استراب في كونه عالما بصنعة الكتابة كان سفيها في استرابته ، فإذا قد ثبت أنه عالم بذاته وبغيره [1])) .

فهذا التكوين البديع الظاهر في الخلق دليل قاطع وبرهان ساطع على أن خالقه /سبحانه وتعالي/ عالم بكل كبيرة وصغيرة في هذا الكون ،

---

[1] *الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد. تحقيق عثمان عيش ص 182 .*

وعلمه شامل للكليات والجزئيات .

يقول الإمام الغزالي : (الأصل الثاني العلم بأنه تعالي عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء صادق في قوله وهو بكل شئ عليم ، ومرشد إلي صدقه بقوله / تعالي/ : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [1]) أرشدك إلي الاستدلال بالخلق على العلم بأنك لا تستريب في دلالة الخلق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضعيف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله / سبحانه وتعالي / هو المنتهي في الهداية والتعريف [2]) .

والآيات القرآنية التي تدل على أن الله / تعالي / متصف بالعلم الشامل الكامل كثيرة ، منها قوله / تعالي / : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة [3]) وقوله / تعالي / : (وأن الله قد أحاط بكل شئ علما [4]) .

---

(1) سورة الملك. الآية رقم 14 .

(2) الغزالي : إحياء علوم الدين ج1 ص 114 .

(3) سورة الحشر. جزء من الآية رقم 22 .

(4) سورة الطلاق. جزء من الآية رقم 12 .

وقوله / تعالي / : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما [1]) .

وقوله / تعالي / : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين [2]) .

وقوله / تعالي / : (ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدني من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم [3]) .

ويقول الله / تعالي / : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير [4]).
يقول الإمام الرازي / في تفسيره لهذه الآية الكريمة / إن معني الآية أن من خلق شيئا لابد أن يكون عالما بمخلوقاته ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضا مقررة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلي الشي لابد أن يكون عالما بحقيقة ذلك الشي ، فإن الغافل عن الشي يستحيل أن يكون

---

(1) سورة غافر. جزء من الآية رقم 6 .

(2) سورة الأنعام . الآية رقم 60 .

(3) سورة المجادلة. الآية رقم 7 .

(4) سورة الملك. الآية رقم 14 .

قاصدا إليه ، وكما ثبت أن الخالق لابد أن يكون عالما بماهية المخلوق لابد أن يكون عالما بكميته ، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو أنقص ، لابد أن يكون بقصد الفاعل واختياره والقصد مسبوق بالعلم ، فلابد أن يكون قد علم ذلك المقدار ، وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولي من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه ، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ، فثبت أن من خلق شيئا فإنه لابد أن يكون عالما بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته (1) .

4 ـ الحياة .

تعريفها : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها ثبوت الصفات السابقة من العلم والإرادة والقدرة وغيرها . فالله / جلت قدرته / هو الحي حياة كاملة ليس ثم أكمل منها ، لا يلحقها العدم ولا يقضى عليها بالانقضاء والفناء .

وقد أجمع أهل الحق على أن الحياة شرط في العلم والقدرة والإرادة ، وأن من ليس بحي لا يصح أن يكون عالما قادرا مريدا ، فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ، ولو تصور قادر وعالم

---

(1) *الرازى : التفسير الكبير ج8 ص 177 .*

فاعل مدبر دون أن يكون حيا لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددها في الحركات والسكنات ، بل في حياة أرباب الحرف والصناعات ، وذلك انغماس في غرة الجهالات والضلالات(1) .

فالعالم لا يمكن أن يصدر إلا من قادر مختار متصف بالحياة الكاملة . وقد ذكر القرآن الكريم / في كثير من آياته البينات / أن الله حي ، ومن ذلك قوله / تعالي / : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم (2)) . وقوله / تعالي / : (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم (3)) . وقوله / تعالي / : (وتوكل على الحي الذي لا يموت (4)) . وقوله / تعالي / : (وعنت الوجوه للحي القيوم (5)) .

5>6 ـ السمع والبصر .

المراد بهما : أما السمع فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمسموعات أو بالموجودات ، فتدرك إدراكا تاما يغاير إدراك العلم

---

(1) *الغزالى : احياء علوم الدين ج1 ص114 .*

(2) *سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .*

(3) *سورة آل عمران. الآية رقم 1 .*

(4) *سورة الفرقان جزء من الآية رقم 58 .*

(5) *سورة طه جزء من الآية رقم 108 .*

والبصر ، ويخالف طريق الإدراك في الحوادث ، فليس سمعه تعالى عن طريق التخيل والتوهم ، فالله / تعالى / منزه عن الحوادث فهو لا يشبهها في صفة السمع ولا في غيرها من الصفات ، والله / تعالى / سميع ولكن ليس على طريق تأثير حاسة ، ووصول هواء كما هو عند المخلوقات . وأما البصر فهو صفة أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالمبصرات أو بالموجودات فتدرك إدراكا تاما لا على طريق التخيل والتوهم ، ولا عن طريق تأثير حاسة ، ووصول شعاع .

والذي يجب الإيمان به / بالنسبة لثبوت هاتين الصفتين لله / عز وجل / كما يقول الإمام الغزالي / بحق أن الله / تعالى / سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ، ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وكيف لا يكون سميعا بصيرا ، والسمع والبصر كمال لا محالة ، وليس بنقص ، فكيف يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ ، وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهته ، والكمال في خلقه وصنعته ؟ ، أو كيف تستقيم حجة إبراهيم / صلى الله عليه وسلم / على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جهلا وغيا فقال له : ((لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا [1])) ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لأضحت حجته داحضة ، ودلالته ساقطة ، ولم

---

[1] *سورة مريم جزء من الآية رقم 41 .*

يصدق قوله تعالى : ((وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه [1])) وكما عقل كونه فاعلا بلا جارحة ، وعالما بلا قلب ودماغ فليعقل كونه بصيرا بلا حدقة وسميعا بلا أذن إذ لا فرق بينهما [2] .

وعليه فإن الله ــ جلت قدرته ــ متصف بصفة السمع التي تتعلق بكل المسموعات ، أو الموجودات ، مخالف سمعه لكل سمع المخلوقات ، ومتصف كذلك بصفة البصر التي تتعلق بالمبصرات ، أو الموجودات ، مخالف لكل بصر المخلوقات ، وبهذا جاء القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، يقول الله تعالى : ((ليس كمثله شئ وهو السميع البصير [3])) ،

ويقول تعالى : ((والله يقضى بالحق والذين تدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير [4])) .

وقد سمع الله تعالى قول التي شكت زوجها إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذت تجادله في قضيتها ، فأنزل الله / جل جلاله / قرآنا يتلى إلي يوم الدين ، يقول تعالى : ((قد سمع الله قول التي تجادلك في

---

[1] *سورة الأنعام . جزء من الآية رقم 84 .*

[2] *الغزالي : احياء علوم الدين ج1 ص 114 .*

[3] *سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9 .*

[4] *سورة غافر. الآية رقم 20 .*

زوجها وتشتكى إلي الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير[1]) .

ولحديث أبي موسى الأشعري – رضى الله عنه – قال : كنا مع النبي / صلى الله عليه وسلم / في سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا ، فقال : ((اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا [2]) .

وفى هذا الحديث أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا وهم في سفر مع الرسول الكريم / صلى الله عليه وسلم / إذا ارتفعوا وهم في الطريق على ربوة أو غيرها كبروا الله / تعالى / ، لأن ذكر الله مطلوب في كل حال ، وبخاصة في السفر ليكون سفرا مباركا آمنا بذكر الله / تعالى / فيه ، فيرشدهم الرسول / صلى الله عليه وسلم / بأن لا يرفعوا أصواتهم بهذا الدعاء والذكر تخفيفا وتيسيرا عليهم ، فالإسلام دين اليسر والسهولة . ويقول لهم : خففوا على أنفسكم ، وكبروا الله / تعالى / حتى في سركم لأنكم تدعون سميعا بصيرا قريبا من الداعي ، يجيب دعوته بأي حال من حالات الدعاء سرا أم جهرا .

مما تقدم يتضح لنا أن الله / تعالى / متصف بصفتي السمع والبصر ، وأن هاتين الصفتين الثابتتين لله / تعالى / لا تماثل مطلقا

---

(1) سورة المجادلة. الآية رقم 1 .

(2) مسند الامام أحمد ج4 ص 402 .

الصفتين اللتين تثبتان للبشر ، لأن صفات الله / تعالى / – بعامة – مخالفة لصفات المخلوقات ، يقول إمام الحرمين (الجويني) : ((ويجب وصف الله تعالى بكونه سميعا بصيرا ، والدليل عليه أن الواحد منا إذا أبصر فإنما يجرى منه تحديق في جهة المرئي ، واتصال أشعة به على مجرى العادة ، وإذا سمع فقد يقرع الهواء صماخيه ، ثم الإدراك الحقيقي يقع وراء الاتصالات التي ذكرناها ، وذلك الإدراك له مزيد على العلم بالمغيب الذي لم يدرك . فالرب تعالى يدرك المبصر والمسموع على الحقيقة التي ندركها عليها ، ويتعالى عما تتصف به الحواس والحدق والأصمخة [1]) .

ويستدل ابن رشد بدليل يعود إلي ما ذكره الأشعرية من أن البصر والسمع يدركان مالا يدركه العقل ، فإذن هما زائدان على الذات ، يقول صاحب مناهج الأدلة : ((إن الصانع يجب أن يدرك كل ما في المصنوع ، ولا يكتفي في معرفة المصنوع / معرفة تامة / بالعلم ، بل لابد من السمع والبصر [2]) .

وغرض علماء التوحيد / في معالجة مثل هذه القضية / تنزيه الباري / عز وجل / ، وإثبات الكمال كله له ، وإبعاده عن مشابهة المخلوقات بأي وجه كان .

---

(1) إمام الحرمين : العقيدة النظامية ص 22 .

(2) ابن رشد: مناهج الأدلة ص 164 – 165 .

وإلا فمن حيث العقيدة حسبنا في معرفة هاتين الصفتيـــن ، ومـدى شمولهما أن نقف عند حدود النص القطعي والنقــل اليقينــي ، لأن العقــل الإنساني / في مثل هذه المسائل / عاجز ، ولا يســتطيع النفــاذ مــا وراء إدراكه .

7 ـ الكلام .

تعريفه : صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ، منزهة عن التقدم والتأخر ، هو بها آمر وناه ومخبر إلي غير ذلك ، يدل عليها نظم ما أوحاه الله إلـــي رسله الكرام كالقرآن والتوراة و الإنجيل والزبور والصحف .

وهذه الصفة عامة التعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات. ودليل ثبوت هذه الصفة لله / تعالى / النصوص القطعية الثابتــة ، وتواتــر النقــل عن الأنبياء والرسل / عليهم الصلاة والسلام / ، ومــن ذلك قولــه /تعالى/ : (وكلم الله موسى تكليما [1]) ، وقوله /تعالى/ : ((وإن أحد مـــن المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه [2])) . وقــد تواتر القول بذلك عن الأنبياء والرسل /عليهم الصلاة والسلام/ ، وقد ثبــت صدقهم بدلالة المعجزة [3].

---

(1) *سورة النساء. جزء من الآية رقم 163 .*

(2) *سورة التوبة. جزء من الآية رقم 6 .*

(3) *انظر : الكردستاني. تقريب المرام في تهذيب الكلام ج2 ص140 .*

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد اشتهر بين علماء اللغة العربية إطلاق القول والكلام على المعنى القائم بالنفس ، وفي هذا المعنى يقــول الشــاعر العربي :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا [1] .

وعلى هذا فإن الكلام / في اللغة العربية / يطلق على معنيين :

أحدهما : الألفاظ المعبرة عن المعنى القائم بالنفس ، فتقــول : هــذا كلام فصيح ، وكلام واضح ، وحديثك جيد ومرتب .

ثانيهما : المعنى القائم بالنفس الذي من شأنه أن يعبر عنــه بألفــاظ كما ورد في بيت الشعر العربي الذي سبق ذكره ، وكما تقول لصـــاحبك : إن في نفسي كلاما كثيرا أريد أن أقوله لك .

---

(1) *قائل هذا البيت هو الأخطل ، وهو غياث بن غوث بن الصلت أحد بني جسم بن بكر ثم أحد بني تغلب وكنيته أبو مالك ولد حوالي عام 641 م ، وهو شاعر كبير من شعراء الدولة الأموية وكان نصرانيا وقبل هذا البيت :*

لا يعجبك من خطيب خطبة حتى يكــون مع الكلام أصيلا

إن الكلام لفي الفؤاد وانمــا جعل اللسان على الفؤاد دليلا

انظر في هذا : شرح شذور الذهب لابن هشام تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد الطبعة الخامسة 1951 م .

ومن الشواهد على ذلك من كتاب الله / عز وجل / في الإخبار عن المنافقين ، قوله تعالى : ((إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون[1]) ومن المعلوم أن الله / تعالى / لم يكذبهم في إقرارهم ، وإنما يكذبهم فيما تجنه سرائرهم وتكنه ضمائرهم .

وإذا ثبت أن الله / تعالى / متكلم بالنصوص القطعية التي تقدم ذكر بعض منها ، ولا معنى له / في اللغة العربية / إلا من قام به صفة الكلام ، والكلام حسي ومعنوي ويمتنع قيام الحسي بذاته تعالى ، فيتعين أن القائم بذاته هو الكلام النفسي ، ولا يكون إلا قديما .

يقول صاحب كتاب : (لمع الأدلة) : ((إذا ثبت أن القائم بالنفس كلام ، وليس هو حروفا منتظمة ، ولا أصواتا مقطعة من مخارج الحروف فليستيقن العاقل أن الكلام القديم ليس بحروف ولا أصوات ولا ألحان ولا نغمات [2])

وعلى ضوء ذلك فإن أهل السنة والجماعة يقررون أن صفة الكلام أزلية قائمة بذاته تعالى ، وهى غير حقيقة العلم وغير الإرادة ، وهى صفة واحدة لا تتعدد ، لكن لها أقساما اعتبارية باعتبار متعلقها ، فمن حيث

---

(1) سورة المنافقون. الآية 1 .

(2) إمام الحرمين : لمع الأدلة ص91 – 92 .

تعلقها بطلب إقامة الصلاة – مثلا – أمر ، وبطلب ترك عقوق الوالدين نهى ، وبأن فلانا فعل كذا في الماضي خبر ، وبأن العاصي عليه عقاب وعيد ، و بأن الطائع له ثواب وعد . فتعلق صفة الكلام إذن تعلق دلالة . ولعل هذا القدر / في بحث هذه الصفة / كاف ، ولا داعي لذكر المسائل الخلافية التي وقعت بين علماء الكلام وغيرهم في القضية المشهورة وهى هل القرآن الكريم قديم أم حادث ؟ فهي مسالة متشعبة يطول البحث فيها ولا جدوى من إثارتها بعد أن علمنا أن الله / تعالى / متصف بصفة الكلام كما جاء في القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسول الله محمد / صلى الله عليه وسلم / بلفظ عربي مبين وبوساطة الوحي المعصوم والمنقول إلينا بالتواتر المعجز المتحدى به المتعبد بتلاوته .

** رابعا – الصفات المعنوية.

المراد بالصفات المعنوية هي الصفات الملازمة للسبع المعاني التي تقدم ذكرها ، وهى كونه تعالى عالما وكونه حيا ، وكونه قادرا ، وكونه مريدا ... الخ صفات المعاني .

والصفات المعنوية السبع هذه أثبتها بعض علماء التوحيد من الماتريدية والمعتزلة لأنهم يثبتون الحال التي هي واسطة بين الموجود والمعدوم ، فقالوا : لله تعالى صفات ثابتة ليست موجودة ولا معدومة معللة بقيام صفات المعاني بالذات عند الماتريدية ، ومعللة بالذات المؤثرة عند المعتزلة .

وعليه فقد رأي هؤلاء أن الصفات المعنوية السبع صفات زائدة على صفات المعاني ، وأنها أمور ثابتة في نفسها بقطع النظر عن الاعتبار والذهن وأنها واسطة بين الموجود والمعدوم .

والدليل على ثبوتها لله / تعالى / ـــ عندهم ـــ :

1 ـــ ما ورد من الأدلة القرآنية في ثبوت صفات المعاني ، كقوله تعالى : ((الله لإله إلا هو الحي القيوم [1]) ، وكقوله تعالى : ((وهو السميع البصير [2]) إلي غير ذلك من الآيات الواردة في إثبات صفات المعاني لله / تعالى / .

2 ـــ ولأن جميعها ـــ أي الصفات المعنوية ـــ صفات كمال يصح أن يتصف بها كل حي ، وكل ما كان كذلك يجب ثبوته لله / تعالى / حتى ينتفي عنه ضده ، فهي إذن واجبة له تعالى .

ويرى جمهور الأشاعرة أنه لا وجود للصفات المعنوية لأنهم لا يعترفون بالحال أي الواسطة بين الموجود والمعدوم . وقد ذهب الإمام الأشعرى إلي أن الصفات المعنوية ليست بصفات زائدة على صفات المعاني ، وأنه لاوجود لها لا في خارج الأعيان ، ولا في خارج الأذهان ،

---

(1) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .

(2) سورة الشوري. جزء من الآية رقم 9 .

بل هي أمور اعتبارية لا وجود لها إلا في الذهن .

ومعنى كون الله قادرا عبارة عن قيام القدرة بالذات ، ومعنى كونه عالما عبارة عن قيام العلم بالذات ، فليس هناك إلا الذات والقدرة والعلم وهكذا إلي آخر صفات المعاني [1] .

وهذا بناء على ما ذهب إليه من أن الأمور قسمان : موجود في الخارج ، ومعدوم ، ولا واسطة بين الموجود والمعدوم وهو ما يعبر عنه بالحال فثبوت الحال من المحال كما يقول علماء الأشاعرة .

يتضح لنا / مما تقدم / أن الواجب لله / تعالى / تفصيلا / عند الأشاعرة / ثلاث عشرة صفة فقط ، وهى صفة واحدة وجودية ، وخمس صفات سلبية ، وسبع صفات معان . أما عند الماتريدية فعشرون صفة أي بزيادة الصفات المعنوية .

ومن الجدير بالذكر أن إنكار جمهور الأشاعرة للصفات المعنوية ليس إنكارا للقادرية أو قيام القدرة بالذات ـــ مثلا ـــ وإنما هو إنكار لكونها زائدة على صفات المعاني ، فلا معنى ـــ عندهم ـــ لكونه قادرا مريدا إلا قيام القدرة والإرادة بالذات .

---

(1) انظر الامام الدردير شرح الخريدة تعليق حسين مكي ص 34 .

المبحث الثاني عشر

بيان متعلق كل صفة من صفات المعاني

المبحث الثاني عشر

بيان متعلق كل صفة من صفات المعاني

تنقسم صفات المعاني ــ من حيث التعلق وعدمه ــ قسمين :

القسم الأول ما يتعلق ، ومعنى تعلق الصفات أنه يقتضي أمرا زائدا على قيام الصفة بموصوفها ، مثل : ((القدرة)) فإنها تقوم بالذات ، وتستلزم أمرا آخر هو التأثير في الممكن ، وهذا القسم يشمل ما يلي :

1 ــ ما يتعلق بجميع الواجبات والممكنات والمستحيلات ، وهو كل من صفتي العلم والكلام ، فصفة العلم ــ كما تقدم ــ هي صفة تكشف عن حقائق الأشياء على ما هي عليه دون أي تأثير فيها ، وعليه فتعلق العلم تعلق انكشاف ، وهو عام التعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات ، لقوله /تعالى/ : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما [1]) ، ولقوله / تعالى / : ((الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما[2]) . وعلى ذلك يجب اعتقاد أن علمه تعالى غير متناه من حيث تعلقه ، فإنه يحيط بما هو غير متناه كنعيم الجنة ، ومن باب أولى

---

(1) *سورة غافر. جزء من الآية رقم 6 .*

(2) *سورة الطلاق. الآية رقم 12 .*

يحيط بما هو متناه ، فعلمه تعالى محيط بكل شئ كلـــى أو جزئـــي متنـــاه وغير متناه .

وصفة الكلام تتعلق بالأشياء كلها تعلق دلالة وبيان ، أو أمر ونهى ، أي أن كلام الله / تعالى / القديم عام التعلق بجميع الواجبـــات والجـــائزات والمستحيلات لصلوحه لها .

وقد احتوى بيانه — جل وعلا — وأمره ونهيه الكلام عن الواجـــب ، وعن الجائز ، وعن المستحيل ، كما تشهد بذلك آيات الكتاب العزيز .

2 — ما يتعلق بالممكنات فقط ، ويشمل صفتين ، همـــا : القـــدرة والإرادة ، لكن جهة التعلق في القدرة التـــأثير ، وفـــى الإرادة تخصيـــص الممكن ببعض ما يجوز عليه .

إذن فالقدرة والارادة تتعلقان بالممكن فقط ، أما الواجب والمســـتحيل فلا شأن لهاتين الصفتين بهما ، والسبب في ذلك — كما علمت مما سبق — أن الواجب لا يمكن إعدامه ، والمستحيل لا يمكن إيجاده ، و إلا لـــم يكـــن الواجب واجبا ، ولا المستحيل مستحيلا ، ولو أمكن انعدام الواجـــب مـــع بقائه واجبا ، أو إيجاد المستحيل مع كونه مستحيلا لأمكن اجتماع النقيضين في وقت واحد ومكان واحد ، وهذا ظاهر الاستحالة .

وتعلق القدرة والإرادة بالممكنات فقط لا يعنى هـــذا أبـــدا عجـــز أو نقصان القدرة أو الإرادة ، وإنما يعنى أن طبيعة الإرادة أو القدرة الكاملـــة

التامة ليس من وظيفتها أن تتجه إلـــي الواجـــب مـــادام كذلـــك ، أو إلـــي المستحيل مادام مستحيلا .

إذا علمت هذا فإن الشبهات التي تطرأ على أذهان غير الموحديـــن أو الذين يلقون بالأسئلة الفارغة من المضمون إنما هي ناتجة عن عـــدم فـــهم متعلق القدرة والإرادة .

وفى هذا المقام يشير صاحب الكتاب ((كبرى اليقينيات الكونيـــة)) إلي ما يطرحه كثير من المشككين من التصورات الخاطئة ، والأسئلة التـــي ليس لها أية معنى ، وغرضهم من ذلك زعزعة الإيمان بالله /تعالى / فـــي قلوب طائفة من المؤمنين ، ومن تلك الأسئلة الواهية البعيدة عن موازيـــن المنطق والعقل قولهم : ((هل يستطيع الله أن يخلق إلها مثله ؟)) تصـــورا منهم بأن المسئولين إن أجابوا بالإمكان اعترفوا بذلك أنـــه ليـــس لـــهم أن يكفروا من أشرك مع الله غيره ، وإن أجابوا بعدم الإمكان فقد أسندوا إلـــي الله / تعالى / العجز ، وذلك دليل على أنه ليس بإله — تعالي الله عن ذلـــك علوا كبيرا — .

إن هذا السؤال لا معني له ، لأن موضوعه ومضمونه هذيان وبعيـــد عن القواعد المنطقية الصحيحة ، فهو مثل الذي يقول لك : كن جالسا واقفـــا أمامي في هذه اللحظة في هذا المكان .

وإذا أردت أن تجاريه في تصوراته المتخيلة ، وتعامله معاملة الطفل الصغير الذي لم يكتمل تفكيره بعد فإنك تستطيع أن تضع أمامـــه صـــورة

للإجابة يستطيع بها أن يتعرف على المعاني الضرورية للبحث العلمي ، فتقول له : الله قادر على أن يخلق كل شئ ، ولكن شريك الله / تعالي / ليس شيئا ، لأنه محال ، والمحال لا يسمي شيئا ، ولأن المستحيل لا يمكن إيجاده [1] .

وهذه الصورة للجواب هي / في الحقيقة / تعليم لجاهل لا يعرف معني المستحيل والواجب والممكن .

3 ــ ما يتعلق بالموجودات ، وهذا يشمل كلا من صفتي السمع والبصر ، فهما لا يتعلقان بالمعدومات ، وإنما يتعلقان بالموجودات أي المعلومات له تعالي ، سواء أكانت قديمة كذاته / تعالي / وصفاته ، أم حادثة كذوات المخلوقين وصفاتهم ، ولا يلزم من اتحاد المتعلق اتحاد الصفة ، بل لكل صفة انكشاف يغاير انكشاف الصفة الأخرى .

هذا ما قرره علماء التوحيد ، ولكن في مثل هذه المسائل الدقيقة ينبغي تفويض الحقيقة فيها إلي عالم الغيب / سبحانه وتعالي / ونثبت ونعتقد أن سمعه وبصره تعالي يخالفان سمع وبصر الموجودات كلها ، وأنه / جلت قدرته / قد قال وقوله الحق : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير [2]) .

---

(1) *كبرى اليقينيات الكونية:* محمد سعيد البوطي ص*137 – 140* .

(2) *سورة الشورى. جزء من الآية رقم 9* .

القسم الثاني : غير متعلق ، ومعناه أنه لا يقتضي أمرا زائدا على قيام الصفة بموصوفها ، وهذا القسم يشمل صفة الحياة فقط ، فالحياة باعتبارها صفة تصحح لمن قامت به الإدراك من غير أن تطلب أمرا زائدا على قيامها بمحلها لا تعلق لها بشيء سوي ذاته المقدسة فليس لها علاقة بالأشياء ، لا على وجه الكشف كالعلم والسمع والبصر، ولا على وجه التأثير والتخصيص كالقدرة والإرادة ، وإنما هي معني قائم بذاته تعالي ، شأنه أن يصحح قيام تلك الصفات السابقة به .

المبحث الثالث عشر

المستحيل في حق الله تعالى

المبحث الثالث عشر

المستحيل في حق الله تعالى

عرفت مما سبق الصفات الواجب ثبوتها لله / عز وجل / كالقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام ، فينبغي الإيمان بهذه الصفات ، ومعرفة اتصاف المولي / تبارك وتعالي / بكل واحدة منها .

والإيمان بها يقتضي / بالضرورة / سلب أضداد كل واحد منها عن الله / تعالي / ، فإنه – جل شأنه – بموجب ثبوت تلك الصفات له ليس له شريك ولا مثيل ولا ظهير ، ولا يتحيز في مكان ، ولا ينحصر في زمان ، ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم ، ولا يصح عليه شئ من لوازمها ، كأن يشار إليه بهنا أو هناك ، أو تنسب إليه الحركة والانتقال من مكان إلي آخر ، ولا يصح عليه الجهل ، ولا الكذب ولا النوم أو النسيان أو القسر والإكراه .. إلي غير ذلك من أضداد صفات الكمال الثابتة له / جل جلاله / .

والدليل على استحالة هذه الصفات أنها صفات نقص والله /تعالي/ منزه عن النقائص. ويشير الإمام الرازي إلي أن سورة الإخلاص قد وضحت أنه تعالي منزه عن الجسمية والحيز والجهة . وذلك لأن قوله

تعالى : (قل هو الله أحد [1]) يـدل على نفي الجسـمية ونفـي الحـيز والجهة ، أما دلالته على أن الله تعالى ليس بجسم فذلك لأن الجسم أقلـه أن يكون مركبا من جوهرين ، وذلك ينافي الوحدة ، وقوله تعالى : (أحـد) مبالغة في الواحدية فكان قوله : (أحد) منافيا للجسمية .

وأما دلالته على أنه ليس بجوهر ، فذلك أن كـل متحـيز لابـد أن يتحيز أحد جانبيه عن الثاني ، وكل ما تحيز فيـه شئ عن شـئ ، فـهو منقسم ، وكل منقسم ليس بأحد ، فلما كان الله / تعالي / موصوفا بأنه أحـد وجب أن لا يكون متحيزا أصلا ، وذلك ينفي كونه جوهرا .

وإذا ثبت أنه / تعالي/ ليس بجسم ولا جوهر وجب أن لا يكون فـي شئ من الأحياز والجهات ، فثبت أن قوله / تعالي / : (أحد) يدل / دلالـة قطعية / على أنه / تعالي / ليس بجسم ولا بجوهر ، ولا في حيز ولا جهة أصلا[2] .

(فالله تعالي يجب اتصافه بصفات الكمال ، وينبغـي تنزيهـه عـن مماثلـة أو مشابهة شئ من مخلوقاته ، فكل ما يدل على الحوادث ، وعلى

---

(1) سورة الاخلاص الاية رقم 1 .

(2) الرازي: أساس التقديس في علم الكلام ص16 – 18 ، وانظر كذلك : الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي. تحقيق عثمان عيش ص 73 وما بعدها ، وكذلك توضيح العقائد لعبد الرحمن الجزيرى ص 79 .

سمة النقص فالرب يتعالى ويتقدس عنه [1]) .

وعلى الجملة فإنه يجب تنزيه ذات الله / تعالي / عن مشابهة سـائر الذوات ، وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات ، وتنزيه أفعالـه عـن مشابهة سائر الأفعال أي الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم ، وعليـه فالأوهام لا تتصوره ، والأفكار لا تقدره ، والعقول لا تمثله ، والأزمنـة لا تدركه ، والجهات لا تحويـه ولا تحـده ، صمـدي الـذات سـرمدي الصفات[2] .

النصوص الموهمة للتشبيه

ورد في كتاب الله / تعالي / وفي سنة رسوله / صلـى الله عليـه وسلم / نصوص كثيرة تفيد بحسب ظاهرها ثبوت بعض النقـائص التـي يستحيل على الله / تعالي / أن يتصف بها كالجهة والجسـمية والجـوارح والأعضاء والتحيز في مكان وما يشبه ذلك ــ كما عرفت فيما سـبق ــ ، ومـن أمثلة ذلك ، قولـه / تعالـى / : (يد الله فوق أيديهم [3]) ، وقوله

---

(1) امام الحرمين : لمع الأدلة تحقيق : د. فوقية حسين ص 94 – 95 .

(2) انظر : الرازي. التفسير الكبير مجلد 6 ص 179 – 180 .

(3) سورة الفتح. جزء من الآية رقم 10 .

/ تعالـى / : (وجاء ربك والملك صفا صفا [1]) ، وقولـه / تعـالي / : (الرحمن على العرش استوي [2]) ، وقوله / تعالي / : (هل ينظـرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام [3]) ، وقوله / تعالي / : (بل يـداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء [4]) ، وقوله / صلى الله عليه وسـلم / : (إن الله خلق آدم على صورته [5]) ، وقوله / صلـى الله عليـه وسـلم / : (قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء[6]) .

هذه الآيات والأحاديث ، / وما يماثلها / تشـعر بحسـب ظاهرهـا بثبوت بعض صفات النقص المنفية عن المولي / تبارك وتعالي / . وعليـه فكيف يمكن التوفيق بين تنزيه الله / تعالي / عن مشابهته تعالي للحـوادث ، وبين ظاهر هذه النصوص ؟ .

والجواب أن هذه النصوص هي مـن نوع المتشـابه فـي القـرآن الكريـم ، والمقصود بالتشابه (كل نقص تجاذبته الاحتمالات حول المعنى

---

(1) سورة الفجر. الآية رقم 24 .

(2) سورة طه. جزء من الآية رقم 4 .

(3) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 208 .

(4) سورة المائدة. جزء من الآية رقم 66 .

(5) مسند الامام أحمد. ج4 ص 244.

(6) المصدر السابق. ج 4 ص 182 .

المراد منه ، وأوهم بظاهره ما قامت الأدلة على نفيه [1]) .

ومن المعلوم أن في القرآن الكريم آيات متشـابهات ، وفيـه آيـات محكمات هن أم الكتاب ، وأغلب آيات القرآن الكريم هي من النوع الثـاني أي الآيات المحكمات ، والمراد بالمحكمات أي قاطعة في دلالتها لا تحتمـل إلا معناها الواضح الصريح .

وما جاء في هذه الآيات المحكمات / بخصوص صفات الله تعـالي ، وتنزيهـه عن مشابهـة المخلوقـات / من هذا النـوع ، وذلك مثل قولـه / تعالي/ : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[2]) .

ولقوله / تعالي / : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولـم يكن له كفؤا أحد[3]) .

وقد بين الله / تعالي / / بيانا شافيا / أن المؤمن يجب عليه أن يتبـع النصوص المحكمة في كتاب الله / عز وجل / وفي كل ما أمر به ونـهي عنه ، وأن يضع النصوص المتشابهة من ورائـها حيـث يجـب التسـليم والوقوف على المعنى المراد منها .

---

(1) محمد البوطى: كبري اليقينيات الكونية ص 143 .

(2) سورة الشوري . جزء من الآية رقم 9 .

(3) سورة الإخلاص كاملة .

يقول جل شأنه : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب [1]) .

وبناء على ذلك أجمع أهل الحق على أن الله / تعالي / منزه عن الحلول وعن الجهة وعن الاتصال والانفصال ، فلا يقال إنه متصل بالعالم ولا منفصل عنه لأن هذه الأمور من صفات الحوادث ، والله ليس بحادث ، والعالم وإن عظم في نفسه فهو في جانب قدرة الله / تعالي / كأنه ليس بشي [2] .

وعليه فكل نص أوهم التشبيه يجب تأويله ، والتأويل معناه إخراج الشي عن ظاهره المتبادر منه ، وهذا القدر هو الذي يجب الإيمان به ، وهو ما اتفق عليه المسلمون كلهم .

أما تعيين المراد من النص فقد اختلف حوله علماء السلف والخلف[3] ، فعلماء السلف يذهبون إلي الكف عن بيان المعني الحقيقي

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 7 .

(2) انظر شرح الخريده في علم التوحيد للشيخ الدردير تعليق حسين مكي ص 28 .

(3) ومن أسباب الاختلاف بين علماء السلف والخلف في هذه القضية أن علماء السلف يقفون على قوله / تعالي / : (وما يعلم تأويله إلا الله) ويجعلون (والراسخون في العلم ..) كلاما مبتدأ في الآية التي أوردناها سابقا ، ومن أجل هذا فوضوا .(يتبع —)

اللائق بالله / تعالي / من هذه النصوص ؛ ويكتفون بتنزيه الله / تعالي / عن كل نقص ومشابهة الحوادث ، وسبيلهم / في ذلك / التأويل الإجمالي لهذه النصوص ، وتحويل العلم التفصيلي / بالمقصود منها / إلي علم الله / عز وجل / ورعا وتهيبا لذلك المقام المتعالي الأقدس ، ولا سيما إن كان اللفظ الشريف يحتمل / بمقتضى اللغة / معنيين أو أكثر كل منها لائق بذي الجلال والإكرام ، وكفا لمن لا يعرف شروط التأويل عن الخوض فيما لا يحسنه [1] .

أما ترك هذه النصوص على ظاهرها دون تأويل لها ، سواء أكان تأويلا إجماليا أم تفصيليا فهو لم يقل به أحد حسب وجهة نظري .

إذن فعلماء السلف لا يؤولون تأويلا تفصيليا ، وإنما يتجهون بتأويلاتهم إلي الإجمال ، فمثلا قوله / تعالي / : (الرحمن على العرش استوى[2]) ، فإنه دل الدليل على أن الإله يمتنع أن يكون في المكان فعرفنا أنه ليس مراد الله / تعالي / من هذه الآية ما أشعر به ظاهرها ، إلا أن في مجازات لفظ (استوى) كثيرة لا يتعين أحدها إلا بدليل لغوي

وأما علماء الخلف فقد عطفوا قوله / تعالي / : (والراسخون في العلم) على لفظ الجلالة (الله) ومن أجل هذا قالوا بتعيين المعني المراد أي أن الله يعلمه والراسخين أيضا ، إبطالا منهم لمذهب الضالين وإرشادا للقاصرين .

(1) انظر : فرقان القرآن. سلامه القضاعي ص 134 .

(2) سورة طه. الآية رقم 4 .

ظني ، والقول بالظن في ذات الله / تعالي / وصفاته غير جائز ، ومن هنا منع علماء السلف تعيين المراد من اللفظ ، ولهذا قال مالك بن أنس — رحمه الله تعالي — : (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة [1])

وهذا الفهم لعقيدة السلف في قضية آيات الصفات وأحاديثها هو الذي ذهب إليه كثير من العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين ومن هؤلاء ابن خلدون في مقدمته ، والرازي في كتابه " أساس التقديس " ، والصابوني في " عقيدة السلف " ، وسلامة القضاعي الشافعي في كتابه " فرقان القرآن " ، ومحمد سعيد رمضان البوطي في كتابه " كبري اليقينيات الكونية " وغيرهم كثير .

ولعل هذا الرأي هو الأولي بالقبول ، إذ أن السلف لم يكونوا متجهين إلي فهم معاني الآيات المتشابهة ، وإنما فوضوا معناها إلي الله / تعالي / سواء أسمينا ذلك تأويلا إجماليا أم لم نسمه فالمؤدى واحد ، وهو أنهم فوضوا معناها إلي الله / تعالي / ولم يطلقوها عليه بالمعني المتبادر منها ، بل بالمعني الذي في علمه تعالي[2] .

---

(1) انظر : رسالة شمس الحقيقة والهداية. احمد على بدر. ص73 .

(2) انظر : ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامى .عوض الله حجـازى ص 102 - 103 ، وأيضا : فرقان القرآن . سلامه القضاعي ص 134 .

ويذهب ابن القيم و المقريزي وغيرهما إلي أن السلف يفهمون آيات الصفات وأحاديثها ويطلقونها على الله / تعالى / بمعناها الحقيقي من غير تفويض ، وهذا الرأي / كما يرى كثير من علماء التوحيد / بعيد عن الصواب ، وذلك لأن الصرف عن الظاهر أمر ضروري ، إذ لولاه لحصل كثر من التناقض في شأن الصفات ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصي ، منها قوله / تعالى / : (ولتصنع على عيني [1]) ، وقوله / تعالى / : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا [2]) ، فإن الناظر / في هاتين الآيتين الكريمتين / يجد أن الله / تعالى / قد أسند إلي نفسه العين بالإفراد ، كما في الآية الأولي وبالجمع كما في الآية الثانية ، فهنا لابد من التأويل ولو إجماليا ، حتى لا يحصل التناقض الذي يتنزه القرآن الكريم عنه . وقس على ذلك بقية النصوص المتشابهة .

ومن هنا وجب / في هذه الحالة بل وفي كل الحالات / أن ننزه الله / تعالى / حيال جميع هذه الآيات والأحاديث عن مشابهة المخلوقات في أن يتحيز في مكان ، وتكون له أبعاد وأعضاء وصورة وشكل ، ثم نكل تفصيل المقصود بكل هذه النصوص إلي الله جل شأنه العالم بمعناها ومرادها ، وبذلك يسلم الإنسان من التناقض في الفهم ، ويسلم كتاب الله / تعالى / من توهم أي تناقض فيه .

---

(1) صورة طه. الآية 39 .

(2) سورة الطور. جزء من الآية رقم 46 .

إذن فالمحققون من السلف ــ كما فهمهم أكثر علماء التوحيد ــ يسلكون هذا المنهج حيث لا يكون عن التأويل معدل ، ولا لبقاء اللفظ على ظاهره محمل ، لذلك نرى ابن جرير الطبري / في تفسيره لقوله تعالى : (ثم استوي إلي السماء فسواهن سبع سماوات [1]) / يذكر المعاني الكثيرة لكلمة (الاستيلاء) في اللغة العربية ، ومنها : الإقبال على الشي بالفعل ، والاستواء ، والعلو والارتفاع ، وأن هذا المعني الأخير هو الذي يفسر به الآية المذكورة .

وأما علماء الخلف فإنهم اتجهوا إلي تأويل النصوص تأويلا مجازيا بينا شائعا بما يكون متفقا مع النصوص المحكمة الأخرى التي تقطع بعدم مشابهة الله / تعالى / لخلقه ، وتنزهه عن الجهة والمكان والجارحة وما يشبه ذلك ، وعليه فقد فسروا (الاستواء) في قوله / تعالى/ : (الرحمن على العرش استوى [2]) بتسلط القوة والسلطان ، وهو معني ثابت في اللغة معروف ، فإن العرب الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم لا يفهمون سوى أن العرش سرير الملك الذي يجلس عليه للحكم ، والاستواء عليه هو العلو عليه ، هذا هو أصل الوضع ، ثم كنوا به عن علو الملك والسلطان حتى صار يستعمل في هذا المعني ، وعلو الملك والسلطان يعني تسلط القوة والسلطان .

---

(1) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 28 .

(2) سورة طه. الآية رقم 4 .

ومن تتبع القرآن الكريم يجد أن الاستواء على العرش مذكور في سبع آيات مقترنا بذكر فعل من أفعاله / تعالى / دال على وجوب وجوده ، وغناه الغني المطلق ، وهو رفع السموات بغير عمد ، أو خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام .

فقد أقام القرآن الكريم القرينة اللفظية في كل موضع ذكر فيه الاستواء على أنه لم يرد ظاهره ، وإنما معناه أنه / سبحانه / لما انفرد بإيجاد الأشياء كلها توحد في التصرف فيها ، فكما أنه لا شريك له في الخلق لا شريك له في الملك ، ولذلك ختم بعض هذه الآيات بقوله تعالي : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين [1]) .

وفي هذه الآية الكريمة تقديم الخبر ، وهو شبه الجملة (الجار والمجرور) على المبتدأ ، وهو يدل على الحصر ، فالخلق ناظر إلي انفراده بخلق السموات والأرض ، والأمر عائد إلي توحده بعلو الملك .

يقول صاحب كتاب : (فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان) : " ومن زعم أن القرآن يقول بالعلو الحسي في خق الله / تعالي / فما عرف الله ، ولا فهم كتابه ... ثم يستشهد بقول الطبري في تفسيره لخاتمة آية الكرسي في قوله تعالي : (وهو العلي العظيم [2]) بعدما مر

---

(1) سورة الأعراف. جزء من الآية رقم 53 .

(2) سورة البقرة. جزء من الآية رقم 253 .

من وصفه تعالي بالوحدانية والحياة والقيومية ، وأن كل شئ فهو له ملكا ، وأنه أحاط بكل شئ علما ، وأن السموات والأرض لا يثقل عليه حفظهما ، ولا يشق عليه ، ثم عقب / بعد هذا كله / بقصر العلو عليه سبحانه .

فبربك هل يفهم منه ذو علم إلا علو الاقتدار وسمو الكمال الذي لا يحد له مقدار ؟ .. إلي أن يقول : والعلو المعنوي منتشر في القرآن مستفيض في لغة العرب في وصف الخالق والمخلوق على ما يليق بكل ...

وأين علو المكان من علو السلطان ، وهل العلو في المكان إلا كمال جسماني عرضي نازل كل النزول عن الكمال الذاتي الأصلي ؟! تعالي الله عما يخطر للواهمين ، وقيل في تفسير قوله تعالي : (كل شئ هالك إلا وجهه [1]) أي إلا هو ، فانظر كيف حمل الوجه على الذات .

وقال الله / تعالي / : (والله واسع عليم[2]) ، فالسعة المتعارفة عظم امتداد الجسم ، فهل قال ذلك أحد من السلف ؟! [3] " .إذن فعلماء التوحيد / وبخاصة المتأخرون منهم / يؤولون كل نص يوهم بظاهره مشابهة الله تعالي للحوادث ، ويفسرون اليد في الآيات الكريمة بالقوة أو

---

(1) سورة القصص جزء من الآية رقم 88 .

(2) سورة البقرة جزء من الآية رقم 267 .

(3) فرقان القرآن . سلامة القضاعي ص 144 وما بعدها بتصرف .

بالكرم ، والعين بالعناية والرعاية ، والوجه بالذات ، والمجيء بمجيء أمره ، والإتيان بإتيان رسول رحمته أو عذابه ، والنزول بنزول ملك من الملائكة ليقول عن الله / تعالى/[1] .

ويفسرون الحديث المتقدم : (إن الله خلق آدم على صورته[2]) بأن الضمير راجع إلي آدم / عليه السلام / لا إلي ذات الله / تعالى / أي أن الله / تعالى / خلق آدم منذ اللحظة التي أوجده فيها على صورته وهيئته التي كان يتمتع بها فيما بعد ، فلم يتطور من شكل إلي آخر .

ويحتمل أن يعود الضمير فيه على الأخ المذكور في صدر الحديث ، كما جاء في صحيح مسلم : (فإذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) أي فليكرم الوجه الذي هو مظهر لخليقة آدم / عليه السلام / . أو أن الضمير عائد إلي ذات الله / تعالى / وذلك كما تدل عليه الرواية الثانية الثابتة الأخرى : (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن) ، ولكن الصورة هنا بمعني الصفة ، أي جهزه الله بصفات العلم والإدراك التي هي من صفات الله عز وجل [3] .

---

(1) انظر : الرازي. أساس التقديس ص 101 وما بعدها ، لمع الأدلة للجويني ص95.

(2) تقدم تخريجه .

(3) انظر: البوطى. كبري اليقينيات الكونية. ص 146 - 147 وكذلك الرازى أساس التقديس ص93 وما بعدها .

ويقسم صاحب كتاب : (استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من تشابه الصفات) الآراء حول مسألة التأويل أو التفويض في متشابه الصفات إلي ثلاثة آراء .

** *الأول :* رأى علماء السلف ، وهو إمرارها على ما جاءت ، مفوضين معناها إلي الله / تعالى / مع تنزيههم عما يدل عليه ظاهر اللفظ مما لا يليق بجلال الله / تعالى / من صفات الحوادث ــ كما سبق ــ .

** *الثاني :* وهو رأى إمام الحرمين والغزالي والرازي وعلماء كثيرين من متأخري علماء الكلام ، وهو جواز تعيين التأويل للمشكل ، ويترجح على غيره مما لا يصح بدلالة سياق ، أو كثرة استعمال اللفظ المشكل فيه .

** *الثالث :* وهو رأى أبى حنيفة ، وأبى الحسن الأشعرى ، ومن سار معهما ، فهم يرون أنها صفات تليق بجلاله وكماله ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه لئلا يضاد النقل العقل ، وتسمي صفات سمعية [1] .

وهذا الرأي الأخير هو ما ذكره أبو الحسن الاشعري في كتابه : ((الإبانة عن أصول الديانة)) في فصل عقده لإبانة قول أهل الحق والسنة ، إذ يقول فيه : ((وأن الله تعالى استوى على العرش على الوجه

---

(1) محمد الخضر . استحالة المعية بالذات. ص 70 – 71 .

الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده استواء منزها عن المماسة و الاستقرار والتمكن والحلول و الانتقال ، لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ، ومقهورون في قبضته ، و هو فوق العرش ، وفوق كل شئ إلي تخوم الثرى ، فوقية لا تزيده قربا إلي العرش والسماء ، بل هو رفيع الدرجات على العرش ، كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى ، وهو مع ذلك قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلي العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شئ شهيد [1])

ويشرح الشيخ عبد الوهاب الشعراني معنى الاستواء على العرش بقوله ، (يجب اعتقاد أن الله تعالى ما استوى على عرشه إلا بصفته الرحمانية كما يليق بجلاله ، كما قال تعالى : ((الرحمن على العرش استوى [2])) .

ولا يجوز إن يطلق على الذات العلي أنه استوى على العوش ، وإن كانت الصفة لا تفارق الموصوف في جانب الحق / تعالى / ، لأن ذلك لم يرد لنا التصريح به في كتاب ولا سنة ، فلا يجوز أن نقول على الله ما لا نعلم ... إلي أن يقول : واعلم أن غاية العقل / في تنزيه الباري عن كيفية الاستواء / أن يجعل ذلك استواء تدبير ، كما استوى الملك من البشر على مملكته ... ويقول : ما الحكمة في إعلامه تعالى بأنه استوى على العرش

---

(1) الأشعرى : الابانة. تحقيق فوقية حسين ص 21 .

(2) سورة طه. الآية رقم 4 .

بناء على أن المراد بالعرش مكان مخصوص في جهة العلو لا جميع الأكوان ؟

فالجواب أن الحكمة / في ذلك / تقريب الطريق على عباده ، وذلك أنه تعالى لما كان هو الملك العظيم ، ولا بد للملك من مكان يقصده فيه عباده لحوائجهم ، وإن كانت ذاته تعالى لا تقبل المكان / قطعا / اقتضت المرتبة له أن يخلق عرشا ، وأن يذكر لعباده أنه استوى عليه ليقصدوه بالدعاء وطلب الحوائج ، فكان ذلك من جملة رحمته لعباده والتنزل لعقولهم ، ولولا ذلك لبقى صاحب العقل حائرا لا يدرى أين يتوجه بقلبه ، فإن الله / تعالى / خلق العبد ذا جهة من أصله ، فلا يقبل إلا ما كان في جهة مادام عقله حاكما عليه ، فإذا من الله / تعالى / عليه بالكمال ، واندرج نور عقله في نور إيمانه تكافأت عنده الجهات في جانب الحق / تعالى / ، وعلم وتحقق أن الحق / تعالى / لا يقبل الجهة ولا التحيز ، وأن العلويات كالسفليات في القرب منه / تعالى / ، قال الله / تعالى / : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [1]) ؛ وقال / صلى الله عليه وسلم / : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد [2]) . فعلم أن الشرع ما تبع العرف إلا في حق ضعفاء العقول رحمة بهم [3])

---

(1) سورة ق. جزء من الاية رقم 16 .

(2) رواه مسلم وأبو داود والنسائي. انظر: كشف الخفاء للعجلوني ج1 ص 160 .

(3) عبد الوهاب الشعراني: اليوا قيت والجواهر. ج1 ص 100 .

بعد عرض آراء العلماء / سلفهم وخلفهم / في هذه المسألة الدقيقة ، وهى النصوص الموهمة للتشبيه نرى أن كلا منها تتجه نحو هدف واحد ، لأن المقصود الأول و الأخير هو تنزيه الله / تعالى / عن جميع صفات النقص ، وعدم تشبيهه بمخلوقاته / جل وعلا / .

يقول العلامة اللقاني :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

ويعني بذلك أن كل نص من الكتاب والسنة أوقع في الوهم صحة القول به / بحسب الظاهر / فالمطلوب منك حمله على خلاف ظاهره مع بيان المراد منه ، فالتأويل / هنا / تفصيلي ــ كما يرى علماء الخلف ــ . أو فوض بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره أي بعد ذلك فوض علمه ومعناه إلي الله / تعالي / وهذا ما يقول به علماء السلف .

ورم تنزيها أي اقصد تنزيهه تعالي عما لا يليق به مع تفويض علم المراد لله / تعالى /[1] .

ورأى السلف / في عصرهم / كان هو الأفضل والأسلم والأوفق للإيمان الفطري المرتكز في كل من العقل والقلب الذي كان سمة ذلك العصر .

---

(1) انظر : شرح الخريده للدردير. تعليق حسين مكي ص 29 .

ورأى الخلف / في عصرهم / بل في عصرنا أصبح هو المصير الذي لا يمكن التحول عنه بسبب الماديات المسيطرة على العقول والقلوب ، وبسبب كثرة الآراء الفكرية والمناقشات التي / غالبا / ما تميل إلي الإلحاد والعناد .

هذه هي آراء العلماء في مسالة النصوص الموهمة للتشبيه ذكرتها لك من خلال مؤلفاتهم وأقوالهم ، وقد رأيت معي كيف بذل أولئك العلماء الأكفاء جهودهم وأفكارهم في سبيل الوصول إلي رأي يعتقدون صحته وصوابه .

ولعل الرأي الذي تميل إليه النفس ويمكن الاعتماد عليه نظرا لقوة الأدلة هو ما سار عليه علماء التوحيد المتأخرون .

المبحث الرابع عشر
الجائز في حقّه تعالى

المبحث الرابع عشر

الجائز في حقه تعالى

يجوز في حق المولي / تبارك وتعالي / أن يتصرف في الممكنات بأسرها كما يشاء ويرّيد ، ومن هذه الممكنات خلق الإنسان وخلق أفعاله .

فالله ــ جلت قدرته ــ يوجد ويخلق الممكنات سواء أوجدت بالفعل أم لم توجد ، ويعدمها متي يشاء ، ويرزق ويمنع ويعز ويذل ، ويشقي ويسعد ، ويوفق من يشاء ويضل من يشاء ، يرسل الرسل ، ويدبر الكون لأنه مالك له ، والمالك يتصرف في ملكه كما يريد ويشاء ، يقول الله / تعالى / : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير[1]) .

فالجائز في حق الله / تعالى / على وجه العموم / فعل كل ممكن أو تركه ، والدليل على ذلك ــ عقلا ــ واضح كل الوضوح ، إذ أن من ثبتت له القدرة الكاملة ، والإرادة النافذة ، والعلم الشامل فإنه / لا محالة / يجوز له التصرف في ملكه كما يشاء لقوله /تعالي/ : (وربك يخلق ما يشاء ويختار[2]) .

---

(1) سورة آل عمران. الآية رقم 26 .

(2) سورة القصص. جزء من الآية رقم 68 .

ويمكن أن تقول / في الدليل العقلي / : إنه لو وجب عليه فعل ممكن أو استحال عليه لما كان قادرا مختارا مريدا واحدا لكن قد ثبتت له القدرة والإرادة والوحدة فانتفي وجوب ممكن أو استحالته عليه ، وثبت له جواز الفعل والترك .

ومن الجائز – في حقه – /تعالى/ الهداية والإضلال لقوله / تعالي / : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء [1]) .

ومعني الهداية خلق قدرة الطاعة في العبد والميل النفسي للعمل الصالح . والمراد بالإضلال خلق قدرة المعصية في العبد والميل النفسي للعمل السيئ .

ومن الجائز – عقلا – في حق الله / تعالى / إنجاز الوعد والوعيد . أما الوعد فإنه وإن جاز تخلفه عقلا إلا أنه يجب إنجازه شرعا عند الأشاعرة والماتريدية ، لقوله / تعالي / : (وعد الله لا يخلف الله وعده [2]) ، وقوله / تعالي / : (انك لا تخلف الميعاد[3]) أي لا تخلف الوعد .

---

(1) سورة الأنعام . جزء من الآية رقم 126 .

(2) سورة الروم. جزء من الآية رقم 5 .

(3) سورة آل عمران. جزء من الآية رقم 194 .

والدليل العقلي / على ذلك / أنه لو تخلف الوعد للزم الكذب والسفه والخلف ، واللازم باطل ، لأنه نقص يجب تنزيه الإله عنه .

وأما الوعيد فبعد اتفاق أهل السنة على جواز تخلفه عقلا ، اختلفوا في جواز تخلفه شرعا .

فذهب الأشاعرة إلي الجواز مستدلين : بأن خلف الوعيد كرم يمتدح عليه فاعله فيجوز على الله / تعالى / لأنه أكرم الأكرمين ، والوعد حق العباد على الله يجعله / تعالى / لأنه الضامن للعطاء فهو أولي بالوفاء ، والوعيد حق الله على عباده ، وصاحب الحق له أن يأخذه وله أن يعفو عنه ، والأولي بذي الجلال والإكرام العفو والصفح لأنه تعالي عفو غفور . وذهب الماتريدية إلي وجوب إنجازه شرعا لأنه يلزم من تخلفه نقائص يجب تنزيه الإله عنها ، وهي :

أ) – الكذب في خبره تعالي ، وهو القائل : (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها [1]) .

ب) – تبديل القول ، وقد قال تعالي : (ما يبدل القول لدي [2]) .

---

(1) سورة النساء. جزء من الآية رقم 14 .

(2) سورة ق. جزء من الآية رقم 29 .

ج) — تجويز عدم خلود الكفار في النار ، وهو خلاف ما قامت عليه الأدلة القطعية .

وقد أجاب علماء الأشاعرة عن هذا بأنه لا يلزم من تخلف الوعيد كذب لأن الكريم إذا أخبر بوعيد بنى ذلك على مشيئته ، يوضح هذا قول الرسول / صلى الله عليه وسلم / : (من وعده الله على عمل / ثوابا / فهو منجز له ، ومن أوعده على عمل / عقابا / فهو بالخيار إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[1]) .

كما لا يلزم تبديل القول ، لأن الآية خاصة بوعيد الكفار ، أو من لم يرد الله العفو عنه ، ولا يلزم / أيضا / تجويز عدم خلود الكفار في النار ، لأن جواز تخلف الوعيد فيما يجوز العفو عنه ، لقوله / تعالي / : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[2]) .

مما تقدم يتضح لك أن ما ذهب إليه الأشاعرة هو الأولي بالقبول لأن أدلته قوية . وباختصار فإن تنفيذ الوعد وهو إثابة الطائعين بفضل الله ، وعدم تخلفه لأنه وعد به ، كما أن إنجاز الوعيد وهو العقاب بعدل الله / تعالي / ، ويجوز تخلفه إلا في حق الكفار . فالله / تعالى / يجوز عليه أن يثيب وأن يعذب ، ولا يجب عليه / عقلا / ثواب ولا عقاب .

---

(1) انظر : مذكرة التوحيد. حسين السيد متولي. ص 84 .

(2) سورة النساء. جزء من الآية رقم 115 .

** أفعال العباد.

تعتبر هذه المسألة من المسائل التي دار حولها نقاش وحوار كبير بين علماء التوحيد ، وكثرت آراؤهم فيها ، وهم على كل حال — من وجهة نظري — لا يريدون من وراء ذلك إلا تنزيه الباري / عز وجل / في صفاته وأفعاله ، فقد علمت — مما سبق — أن الله تعالى متصف بصفة القدرة ، فهو سبحانه وتعالى له القدرة المطلقة على إيجاد الممكنات وإعدامها ، كما أنه تعالى متصف بصفة الإرادة ، وهى مطلقة وكاملة وصالحة للتعلق بجميع الممكنات .

وهنا قد يثار سؤال مؤداه : أن الإنسان يريد ويختار ويعمل كثيرا من الأعمال ، فما نوع هذا العمل وتلك الإرادة في جانب قدرة الله تعالى وإرادته ؟

والجواب على ذلك : أن الله تعالى لما خلق الإنسان أقامه على نوعين من الأعمال :

— *النوع الأول :* أعمال اضطرارية لا اختيار للإنسان فيها ، كحركة النمو وما يتبعه من قوة وضعف ، وكالولادة والموت ، وارتعاش اليد المريضة بمرض عصبي ونحو ذلك ، وباختصار كل ما يقع في الكون ولا دخل للإنسان فيه كحركة الفصول والأفلاك ، ونمو الأشجار والنباتات ، وغيرها .

ـــ *النوع الثاني :* أعمال اختيارية يكون للإنسان دخل في حدوثها ، مثل : القراءة والكتابة ، وكل عمل يقوم به أي إنسان مكتمل لقواه الجسمية والعقلية .

فالنوع الأول يستوي فيه الإنسان مع سائر الموجودات الأخرى من حيوانات وجمادات ونبات وأفلاك هي حركات قسرية آلية لا دخل للإنسان في اكتسابها أو في إرادتها .

أما النوع الثاني منهما فتصرفات تنشأ من سر عجيب خاص أودعه الله / تعالى / في الإنسان يسمى الاختيار والإرادة ، (فلقد تعلقت إرادة الله / عز وجل / بأن يغرس في كيان الإنسان هذا السر الذي هو محور التكليف فيه ، وأن يجعله يصدر في كثير من تصرفاته عن هذا السر الذي به يسمى حرا ومختارا [1]) .

ولا خلاف بين العلماء في أن الأفعال الاضطرارية ـــ كما في النوع الأول ـــ مخلوقة لله / تعالى / ، وأنها ليست مناط التكليف ، إذ لا دخل لقدرة العبد ، ولا لاختياره فيها . وإنما الخلاف بينهم فيمن أوجد الأفعال الاختيارية التي هي مناط التكليف .

فجمهور أهل السنة يقولون إنها مخلوقة لله / تعالى / ، وليس للعبد فيها إلا الكسب ، فالعباد كاسبون لأعمالهم ، وليسوا خالقين لها .

---

(1) *محمد سعيد البوطي: كبرى اليقينيات الكونية ص 162 .*

وعليه فإن قدرة الله / تعالى / عامة لكل الكائنات والممكنات ، وأن الإنسان لم يكن مجبورا على عمله ـــ كما يدعي الجبريون ـــ بل إن له كسبا يكون كافيا في التكليف وترتب الثواب والعقاب ، ومعنى هذا أن الكسب عبارة عن تعلق الإرادة للفعل ، وعند ذلك يخلق الله / تعالى / في العبد قدرة حادثة مؤقتة تتعلق بذلك الفعل ، ولكنها غير مؤثرة فيه ، بل يترتب عليها الفعل في ظاهر الأمر ، وقدرة الله ـــ باعتبارها مطلقة ـــ هي المؤثرة في الحقيقة .

مثلا إذا أراد الإنسان الصلاة فإنه يصرف إرادته إلي إقامتها بالفعل ، بمعنى أن إرادته تتعلق بها ، وعند ذلك يخلق الله له قدرة مقارنة للفعل لا تأثير لها فيه ، ولكنه يترتب عليها عادة في الظاهر فقط ، وتسمى تلك القدرة بالعرض المقارن للفعل [1] .

ومعنى ذلك إن إرادة الله / تعالى / تعلقت بأن تكون مريدا فسرت إرادة الله تعالى بذلك إلي كل ما تريده وتختاره من الأعمال كالصلاة مثلا، وبهذا ينتفي التعارض بين إرادة الله / تعالى / وما تختاره من طريق إرادتك الخاصة ، فصرف إرادتك هنا أمر اعتباري لا وجود له إلا في الذهن ، إذ هو عبارة عن تعلق الإرادة . ومثال ذلك / لتقريب المعنى فقط / : أن المعلم ينصح الطلاب دائما بالجد والاجتهاد والابتعاد عن

---

(1) *انظر : عبد الرحمن الجزيري توضيح العقائد ص128- 129 .*

الكسل والخمول ، ثم إنه في نهاية العام الدراسي أو الفصلي يعقد لهم امتحانا لمعرفة مستوى كل واحد منهم .

إن إرادة المعلم / في هذا / متوجهة إلي نتيجة الامتحان وظهورها ، أيا كانت نجاحا أم رسوبا ، وهنا لا تناقض بين نصح المعلم لطلابه بالجد والمثابرة ، وبين ما أراده من النتيجة التي تفصح عن واقع أمره .

فالإرادة لا تستلزم الأمر ولا الرضي بالشيء المراد ، فالإنسان / في كل أعماله وتصرفاته الاختيارية / إنما يتحرك في دائرة الإرادة الإلهية ، ولا تنافى بين كون الإنسان مختارا مريدا في تصرفاته هذه ، وبين كونه لا يتخطى الإرادة الإلهية المطلقة .

فمصير الإرادة الإنسانية في جنب إرادة الله / تعالى / ليس إلا كمصير إرادة المعلم في المثال المتقدم ـــ ولله المثل الأعلى ـــ . فالطالب الذي لم يوفق في الامتحان لا يصح له أن يقول للمعلم إني مجبر على هذا الرسوب لأنك قد أردت مني الرسوب عندما أردت امتحاني [1] .

إن الإنسان قد وهبه الله / تعالى / الإرادة والقدرة والاختيار وهذه الهبة الإلهية هي التي سخرته لكل عمل عمله ، وكل ذلك داخل في المشيئة الإلهية .

---

(1) انظر : *كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص 165 .*

فالإنسان ما كان ليتمتع بإرادة في كيانه يتجه بسر هذه الإرادة إلي اختيار ما يشاء من التصرفات والأعمال لو لم يشأ الله / تعالى / أن يضع في كيانه هذا السر العظيم ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما [1]) .

فهذه الآية الكريمة هي أساس ذلك كله ، وأنها توضح أن الله / تعالى / أكرم الإنسان ، وشاء ـــ جل وعلا ـــ أن يجعله ذا إرادة في تصرفاته الاختيارية ضمن دائرة الإرادة الإلهية .

إن ظاهر الآية الكريمة يدل على أن الإنسان لا يملك لنفسه أي مشيئة إلا بإذن الله / تعالى / ومشيئته ، ولكن المتأمل فيها يجد أن المولى / تبارك وتعالى / قد وهب عبده إرادة يسير بها في حياته وتصرفاته .

بناء على ما تقدم فإن إرادة الإنسان / هي من غير شك / تحت إرادة الله تعالي / ولكن لا عن طريق الجبر والإكراه ، وإنما على طريق الكسب الذي خلقه الله في الإنسان كما هو رأي علماء الأشاعرة .

إن فكرة الإمام الأشعرى – رحمه الله تعالي – في الكسب تصحح الثواب والعقاب ، وتقرر / في الوقت نفسه / أن قدرة الإنسان لا تخلق شيئا ، وإنما هي قدرة قابلة أو كاسبة لما يفيضه الله عليها من الأعمال ، أما القدرة الكاملة الشاملة المطلقة فهي قدرة الله / تعالى / .

---

(1) *سورة النساء. الآية رقم 30 .*

وبهذا التفسير يكون الإنسان دائما في أشد الحاجة / في كل فعل من أفعاله / إلي قدرة الله / تعالى / خلقا ، وقدرته هو كسبا ، وهي من خلق الله أيضا ، وهذا يلهم الإنسان معني التوكل على الله / تعالى/ ويزيد من عاطفته الدينية نحو ربه ، ويبعده عن الكبرياء الذي قد يحس به أولئك القائلون بخلق أفعالهم[1] .

وسيأتي مزيد بيان في مسألة أفعال العباد عند الحديث عن القضاء والقدر لأن هناك علاقة بين هذه المسائل .

** القضاء والقدر.

معناهما : القضاء يرجع في اللغة العربية إلي معني إتمام الشيء قولا وفعلا .

والقدر ـ لغة ـ : يتناول عدة معان ، من بينها : التقدير والقضاء ، والخلق ، والتصوير ، والتضييق ، والمثل ، والجود .

وأما القضاء ـ اصطلاحا ـ : فهو علم الله / تعالى / في الأزل بالأشياء كلها على ما سيكون عليه في المستقبل ، وقد يعرف بأنه عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العلم الأعلى على الوجه الكلي .

(1) انظر : *أبو الحسن الأشعري. حمودة غرابة ص 161 .*

وقيل إن القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي على أعيان الموجودات بأحوالها من الأزل إلي الأبد مثل الحكم بأن كل نفس ذائقة الموت[1] . وقد يطلق القضاء على الشي المقضي نفسه .

أما القدر ـ اصطلاحا ـ : فهو عبارة عن وجود جميع الموجودات في موادها الخارجية ، ومعني ذلك أن الله ـ جلت قدرته ـ قدر الأشياء في الأزل ، وعلم أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي إذن تقع على حسب ما قدرها الله / تعالى / .

وعليه فالقدر إيجاد تلك الأشياء بالفعل طبقا لعلمه الأزلي المتعلق بها ، أما القضاء فهو علم الله أولا بالأشياء على ما هي عليه .

** وجوب الإيمان بالقضاء والقدر :

من المقرر الثابت في العقيدة الإسلامية أن الإيمان بالقضاء والقدر يعتبر جزءا من الإيمان ، ولا يتم إلا بهما ، فقد ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

(1) انظر : *مشارق أنوار العقول. احمد العلوي. ص301 .*

وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره [1]) . ومن لا يؤمن بالقضاء والقدر ، أي لم يصدق بهما فهو كافر .

وقد تبرأ ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ من القدرية التي أنكرت القدر ، وقالت : (لا قدر والأمر أنف) ، ومعني قولهم هذا أن الله يستأنف علم الأشياء حال وقوعها ، وهذا غير صحيح .

والإيمان بالقضاء والقدر لا يستلزم الرضى بالمعاصي ، لأن المعصية مقضي ومقدر ، لا قضاء وقدر ، حيث إن المعصية لها جهتان : جهة أن العبد كسبها باختياره ، وهي ما يجب الاعتراض عليه ، وجهة كونها مخلوقة لله / تعالي / وهي ما يجب الرضى به .

كما أن الإيمان بالقضاء والقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب ، ولا مؤاخذة العبد بما كسب ، كما أنه لا يتنافى مع التكليف ، لأنه عبارة عن التصديق بأن جميع ما أوجده الله / تعالي / على غاية من الإتقان ، وبأنه علم / أزلا / ما تكون عليه المخلوقات فيما لا يزال .

وهذا الإيمان ليس فيه أي تناف فهو لا يخرج من التصديق بعلم الله وإرادته وقدرته . فالله / تعالى / أوجب على المؤمنين التصديق بالقضاء والقدر ، لأنه سبحانه خلق السنن والقوانين لهذا الوجود ، وكل الأشياء

---

(1) جزء من حديث الايمان والاسلام . رواه مسلم وغيره . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ص157 .

تجرى وتدور حسب هذه السنن الكونية ، والقوانين الكلية وفق إرادته وعلمه تعالي ، بالإضافة إلي ذلك فإن الله / تعالى / متصف بالعلم والإرادة والقدرة ــ كما عرفت ــ فالقضاء فرع عن ثبوت صفة العلم ، والإرادة لله / تعالى / . والقدر فرع عن ثبوت صفة القدرة له جل شأنه .

وعليه فإن معني وجوب الإيمان بالقضاء والقدر أنه يجب على المكلف أن يؤمن ويصدق بأن الله / تعالى / علم أولا بجميع أفعال العباد ، وكل ما يتعلق بالخلق بما سيتوالى حدوثه في المستقبل ، كما يجب عليه أن يؤمن بأن الله ــ جلت قدرته ــ إنما أوجدها وقت أوجدها على القدر المخصوص والوجه المعين الذي سبق العلم به .

وبناء على ذلك فإنه لا علاقة للقضاء والقدر بالجبر مطلقا ــ كما يتوهم بعض الناس ــ ، إذ أن الله / تعالى / وهو المتصف بصفات الكمال والتأثير لابد وإن يكون عالما بما سيفعله عباده ومخلوقاته من مختلف الأعمال ، وبما سيقع ويحصل في ملكه ، ولابد ــ كذلك ــ أن تقع هذه الأمور مطابقة لعلم الله عنها ، وإلا لكان نقصا في صفاته تعالي ، وانقلاب علمه جهلا ، وكل ذلك محال على الله / تعالى / .

إذن فالإيمان بالقضاء والقدر جزء من عقيدة المسلم ، وليس فيه معني الإجبار أو الإكراه أو القسر ، حيث إن علم الله / تعالى / صفة

كاشفة فقط ، وكل شأنها أنها تكشف عن الأمور على ما هـي عليـه ، أو على ما ستوجد عليه [1] .

فالله / تبارك وتعالى / قرر الأشياء في القدم ، وعلم أنها ستقع فـي أوقات معلومة عنده تعالي ، وعلى صفات مخصوصة ، فهي تقـع علـى حسب ما قدرها / جل وعلا / .

(وقد يحسب كثيـر من الناس أن معني القضـاء والقدر إجبـار الله / تعالى / العبد وقهره على ما قدره وقضاه ، وليس الأمر كما يتوهمونـه ،

---

(1) من المعلوم أن في مسألة القدر آراء كثيرة يمكن إجمالها فيما يلي :

1 ـ جماعة الجبريين الذين يقولون إن الله / تعالي / خلق العباد وخلق لـهم أفعالهم ، كما خلق لهم أعضاءهم وأقوالهم ، وأول القائلين بالجبر في صـدر الدولة الأموية جهم بن صفوان وأتباعه .

2 ـ القدريون من المعتزلة الذين يقولون إن الانسان حر فيما يفعل من خير وشر وسيحاسب عليه ، وإن كل الأفعال الصادرة عن الانسان هي بقدره واختياره .

3 ـ أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشـعرى الـذي حـاول أن يتوسط بين القول بالجبر ، والقول بالاختيار - كما يتضح لك من خلال الدراسة في صلب المباحث .

وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله / تعالى / بما يكون من اكتساب العبـد وصدور أفعاله عن تقدير منه / تعالى / وخلق لها خيرها وشرها [1]) .

ومن هنا فإن العلم لا علاقة له بالأشياء إلا على وجه الكشف عنها ، وكل شئ لا يوجد ولا يتكيف آلا بخلـق الله / جـل شـأنه / ولا يتـم إلا بإرادته، وليس هناك قهر ولا إجبار بالنسبة للإنسان . ويمكن توضيح ذلك من خلال ما يأتي :

تنقسم مخلوقات الله / تعالى / إلي قسمين :

ـ ***الأول :*** مخلوقات لا كسب لأحد فيها ، وهي كل ما يقـع فـي الكون على وجه القسر والحتمية ، كحركة الأفلاك ونمو الأشجار والنباتات والإنسان ووظائفه وحركاته كالنوم واليقظة ، وحركة الأنعـاش والمـوت وغيرها من الأمور التي لا تدخل تحت قدرة الإنسان ، وهذا القسـم ليـس محل بحث أو نقاش ، إذ أن الإنسان / في مثل هذه الأمور / ليس مكلفـا ، ولا يترتب عليه فيها ثواب أو عقاب .

ـ ***الثاني :*** مخلوقات اكتسابية يتصف بها الإنسان بكسبه وسـعيه الاختياري ، وذلك مثل : إقبال الإنسان على الدراسة والعلـم ، واختيـاره

---

(1) *انظر : النووى على صحيح مسلم ج1 ص 154 ، وكذلك : فتح المنعم موسى لاشين ج1 ص 33 .*

لنوع معين من اللباس ، وتقيده بنوع من السلوك ونحو ذلك ، فهذه كلها أفعال اختيارية كسبية ، وهي محل البحث والنقاش بين كثير من العلماء .

ومن المعلوم أن أفعال الإنسان الاختيارية من جملة مخلوقات الله /تعالى/ — كما سبق — فهو / سبحانه / هو الذي يخلق فينا الإقبال على الدراسة أو الانقطاع عنها ، وهو الذي يخلق فينا التصرفات كلها ، وهذا ثابت بالدليل والبرهان العقلي والنقلي .

فالعقل الذي وهبه الله للإنسان يبرهن على أنه لو لم يكن شئ من ذلك بخلق الله وقدرته لما اتصف سبحانه بكل صفات الكمال ، ولكان ذلك بتأثير مستقل عن غيره ، وهذا محال على الله /تعالى/ . والنقلي من القرآن الكريم آيات كثيرة ، من ذلك قوله / تعالى / : (وخلق كل شئ فقدره تقديرا [1]) .

ولكن كثيرا من الناس يتوهمون أن العبد مجبور على أفعاله وتصرفاته ، والوهم — كما تعرف — ليس من العلم في شئ .

والصحيح أن خلق الله / تعالى / لأفعال الإنسان وتصرفاته لا يستلزم أبدا أن يكون مكرها عليها ، ومجبرا على فعلها ، إذ لا تلازم بينهما ، فقيام الإنسان بفعل ما يتوقف على أمرين :

---

(1) *سورة الفرقان. جزء من الآية رقم 2 .*

الأمر الأول : وجود هذا الفعل فى الخارج ، ومعنى ذلك وجود مقومات ذلك الفعل المادية والمعنوية .

الأمر الثاني : اكتساب الإنسان لهذا الفعل عن طريق توجهه نحوه . إذن فالإنسان مريد مختار في هذا العمل بوصفه كاسبا ، ومتوجها إليه ، لا بوصفه خالقا وموجدا لمقوماته وعناصره [2] . ومن هنا فإن القصد والعزيمة والكسب من الإنسان ، وخلق الفعل وأسبابه القريبة والبعيدة كل ذلك من الله / تعالى / . والمحاسبة — دائما — تكون على القصد والكسب لا على خلق الوسائل والأسباب وخلق الفعل نفسه .

فالمقاضاة — مثلا — إنما تكون على الكسب لا على جوهر الفعل المستقل بذاته ، فالذي يسير بمركوبه في الطريق العام فيصيب به إنسانا فيقتله لا يقاضي على الفعل ، لأنه ليس هو صاحب الفعل بالذات ، بل صاحب الفعل المباشر هو المركوب نفسه أي الركوبة / مثلا / ، ولكنه يقاضي على الكسب ، ويصير مسئولا أمام الشرع والقانون في هذا القتل لأنه قد اكتسبه ، وقس على ذلك بقية الأعمال . إذن فالله / تعالي/ يحاسب عباده على كسبهم باختيارهم .

ومما تجدر الإشارة إليه في موضوع القضاء والقدر أنه لا يجوز الاحتجاج بهما بعد الوقوع وقبل التوبة لدفع المؤاخذة ، أو التخلص من حد

---

(2) *انظر : كبرى اليقينيات الكونية. محمد البوطي ص170 .*

المعصية ، ولا يجوز / كذلك / قبل الوقوع توصلا إلي المعصية ، فقد عوقب من تعلل بالقدر في عهد عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقد أتي له بسارق فقال له لم سرقت ؟ فقال : قضى الله علي ، فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطا ، فقيل له في ذلك ، فقال : القطع للسرقة ، والجلد للكذب على الله / تعالى / .

وقيل لعبد الله بن عمر ــ رضي الله عنهما ــ إن قوما يزنون ، ويشربون الخمر ويسرقون ، ويقتلون النفس ، ويقولون كان في علم الله فلم نجد بدا منه ، فغضب ابن عمر ــ رضي الله عنه ــ ، ثم قال : سبحان الله العظيم قد كان في علم الله أنهم يفعلون ، ولم يحملهم علم الله على فعلها !!

وأخيرا فإن موضوع القضاء والقدر ليس من السهل الوصول فيه إلي نتيجة ترضي جميع الآراء ، لأن المرجع / في سر القضاء والقدر / إنما هو إلي حكمة الله / تعالى / وتقديره وعلمه .

وحكمة الله / تعالى / : (تتعلق بالأبد الذي لا ابتداء له ولا انتهاء ، ولا تتعلق بهذه الحقيقة أو تلك الحقيقة في الزمن الذي يحيط من المخلوقات [1]) .

---

(1) عباس محمود العقاد. *الفلسفة القرآنية*. ص 144 .

ومن هنا فإن المسلم يستطيع أن يؤمن بكل حكم من أحكام القرآن الكريم في مسألة القضاء والقدر ، وأن يسلم الأمر إلي الله / تعالى / وحده لأنه له الأمر من قبل ومن بعد .

فسر القضاء والقدر هو من الإيمان بالغيب ، ولا يحصره الحس والشهادة .

المبحث الخامس عشر

هدم الأسس التي قامت عليها آراء منكري الديـــن

المبحث الخامس عشر

هدم الأسس التي قامت عليها آراء منكري الدين

من المقرر الثابت أن ضرورة الإنسان إلي دين إلهي صحيح أشد من ضرورته إلي العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء وغداء وهواء ، وهذه حقيقة لا ينكرها أو يجادل فيها إلا معاند مكابر استجاب لنزعات الهوى والغرض والتعصب ، وابتعد / كثيرا / عن المنهج العلمي القويم للوصول إلي الحق والحقيقة .

فالإيمان بوجود الله / تعالى / إذا كان في العصور البعيدة إيمانا غيبيا فإن الإيمان به / جل شأنه / في هذا العصر عصر التقدم العلمي بكافة فروعه إيمان لا يقبل الشك ، أو على الأقل ينبغي أن يكون كذلك ، حيث إن هذا العصر قد اكتشفت فيه كثير من الأشياء الخارقة ، والمعجزات الباهرة التي تدل من أول وهلة على أن لهذا الكون خالقا عظيما مسيرا ومدبرا له ، (إن هذا العصر أحق أن يسمي عصر الإيمان)[1] .

ولكن منكري الدين — وللأسف — عكسوا الآية وقلبوها رأسا على عقب — إن صح التعبير — فبدل الإيمان أصبح هناك إلحاد ، وبدل

---

(1) عبد الرزاق نوفل. *الله والعلم الحديث*. ص15 .

الاعتقاد صار هناك شك ، وقالوا بالخلق والتخلق طبعا ، وأنكروا وجود الله / تعالى / .

والغريب في الأمر أن هؤلاء الملحدين يزعمون أن آراءهم واعتقاداتهم هذه مبنية على أسس من العلم ، وأن الدين / عندهم / شئ لا حقيقة له ، وإنما هو مظهر من مظاهر الغريزة الإنسانية الباحثة عن حقيقة الكون ، ويقررون أن البشرية عندما اعتقدت في الماضي بأن هناك إلها كانت معذورة في هذا بسبب المعلومات والوسائل المحدودة التي كانت تمتلكها ، أما اليوم فلا داعي لهذا الاعتقاد ، أو حتى لإفتراضه بعدما توفرت لنا اليوم كافة الوسائل العلمية .

وانطلاقا من هذا فإن المذهب الواقعي حاول أن يبرز / بشكل كبير وواضح / أن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية التي بني على أساسها أن كل ما لا يدخل تحت التجربة والملاحظة فهو شئ لا حقيقة له .

وباختصار فإن كل معرفة صحيحة في نظر الماديين هي ما يجوز أن تدخل تحت التجارب العلمية ، وما عدا ذلك فهو شئ لا يقر ولا يعترف به الملحدون أو التجريبيون ، وهم يقصدون بذلك الأمور الإلهية لأنها لا يمكن وضعها تحت التجربة .

وهكذا سار هؤلاء الملحدون في هذه السبل المنحرفة عن الطريق المستقيم ، طريق الحق والهدى والنور .

(إن كلمة الإلحاد لا تعنى شيئا أكثر من مخاصمة العقل النير مهما كان نوع هذا الإلحاد ومنبعه ، ومهما كانت فلسفته أو دوافعه[1]) .

لذلك فإن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي لم يدخله التحريف والتبديل والزيادة والنقص دعوى فارغة لا أساس لها من الصحة ، وذلك لأن كل ما أفاده الإنسان من العلوم والمعارف إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحي الإلهي ، فالله / تعالى / خالق كل شئ وهو الذي علم الإنسان في كل عصر ومكان ، يضاف إلي ذلك أن العلم المادي مقصور على نفع الإنسان في جانبه المادي ، أي ما يتعلق بجسمه وما يتطلبه ، أما الجانب الروحي فإنه / في الغالب / لم يخدمه في شيء . وغنى عن القول بأن الجانب الروحي في الإنسان هو الأهم .

إن الفلسفة المادية تزعم أن المادة هي أصل الوجود ، وأن جميع مظاهر الكون تتصاعد عن طريق المتناقضات ، وتصارعها حيث يتغلب الأصلح ويذهب الآخر جفاء ، وهكذا صاروا يتلمسون الآراء الفاسدة ، والأسس الواهية ، والجدل العقيم الذي لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وحتى نكون على بينة من آرائهم وأسسهم تلك نعرضها هنا ثم ننقدها ونبطلها بالأدلة العلمية .

وفيما يلي بيان لأهم الأسس التي اعتمد عليها منكرو الدين :

---

(1) *محمد سعيد البوطي : كبرى اليقينيات الكونيه. ص99* .

ـ ***الأساس الأول : قانون الطبيعة*** ، ومعناه : أن الكون كله ـ أرضه وسماءه ـ مرتبط بقوانين ثابتة تتحرك في نطاقها الأجرام السماوية .

ويقرر أصحاب هذا القانون أن التطور العلمي والاكتشافات الكثيرة أوضحت للإنسان كثيرا من الأحداث التي لم يشاهدها من قبل ، وذلك كأسباب شروق الشمس وغروبها ، والزلازل والبراكين وغيرها فإنه كان لا يعلم عنها شيئا وينسبها ـ غالبا ـ إلي قوة فوق الطبيعة . أما اليوم وبعد أن عرفنا أسبابا كثيرة منها ، فلا داعي لهذا الافتراض ـ على حد زعمهم ـ .

** ***نقد وإبطال هذا القانون :***

إن القانون الذي بني عليه منكرو الدين نفيهم له هو قانون الطبيعة ، فما المراد بها ؟ إنها المادة وعناصر تكوينها من البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة والمواد المركبة منها ، وهى الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نوات منه على بروتون ، ونيترون والكترون .

وهذه الطبيعة / بكل ما تحتويه / حقيقة من حقائق الكون ، وليست تفسيرا له . فالمادة ـ كما هو معلوم ـ موجود جامد لا يحس نقيض الروح التي هي موجود يشعر ويحس ، فقولهم إن أصل الحياة التي في الكون كله المادة معناه أن الحياة التي تسرى في كل شئ حي ناشئة من

المادة الجامدة التي هي نقيض الحياة [1] ، وهذا القول فاسد وظاهر البطلان إذ أن النقيضين لا يجتمعان في وقت واحد ومكان واحد ، ولا يتولد أحدهما عن الآخر .

فالمادة الجامدة تناقض الحياة ولا يمكن أن تكون الأولى أي المادة أصلا ومنشأ للثانية أي الحياة . ولا يصدق العقل السوي أن الطبيعة أوجدت نفسها أولا ، ثم أوجدت غيرها من الموجودات .

إن المادة المركبة من عناصرها ، والمودع فيها خواصها مفتقرة إلي من يوجد عناصرها ، ويودع فيها خواصها ، وكل شئ احتاج إلي غيره فهو حادث ، كما أن كل مركب حادث ، وكل حادث مفتقر إلي محدث أحدثه قطعا ، وهذا ما قرره العلماء واتفق عليه ذوو العقول السليمة .

أما ما يردده الماديون من اكتشاف العلم لكثير الأشياء عن طريق قانون الطبيعة فهو / في الحقيقة / إنما هو لظاهر هذا الكون ، وليس لما وراءه ، فكل ما وصل إليه العلم إنما هو الأشياء الظاهرة التي يمكن أن تدخل تحت الملاحظة والتجربة ، وهى / مع كل ذلك / تفصيل لما يحدث ، وليس تفسيرا لهذا الأمر الواقع ، فمقصود العلم / دائما / هو الإجابة عن أي سؤال بصيغة : ما هذا ؟! وليس لديه إجابة عن السؤال ولكن لماذا ؟! [2] .

---

(1) *انظر : كبرى اليقينيات الكونية محمد البوطي ص 101 .*

(2) *وحيد الدين خان: الاسلام يتحدى. ص 41 - 42 .*

إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد وهى التي تتكون منها جميع المواد .

إن العلم قد وضح للبشرية كثيرا من الأشياء التي لم تكن معروفة من قبل ، وهذه ميزة حسنة من ميزاته ، إلا أنه لم ولن يستطيع أن يفسر الأسباب الكامنة وراء هذا الكون ، فهو يشرح ويبين ما يحدث ، وليس له أن يجيب لماذا يحدث ؟ لأن هذا ليس ميدانه .

فالمواد التي استطاع العلماء أن يخترعوا منها أشياء كثيرة موجودة في الكون من غير شك خلقها الله / تعالى / من لا شئ . إذن هم عرفوا ما يحدث ولكنهم لم يعرفوا لماذا يحدث ؟! .

يقول أحد علماء الطبيعة عن نشأة العالم :

(هناك أربعة احتمالات : إما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال ، وإما أن يكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم ، وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية ، وإما أن يكون له خالق .

أما الاحتمال الأول فهو يعنى أن إحساسنا بهذا الكون ، وإدراكنا لما يحث فيه لا يعدو أن يكون وهما من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة ، وهذا احتمال باطل ورأي لا يحتاج إلي مناقشة .

والاحتمال الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم هو كذلك لا يقل عن سابقه سخفا وحماقة ، والنظر فيه لهو وباطل .

أما الاحتمال الثالث الذي يرى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية فإن العلم يناقضه ، حيث إن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا ، وأنها سائرة / حتما / إلي يوم تصير فيه جميع الأجناس تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق ، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ، وهذا من أقوى الأدلة على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو / إذن / حدث من الأحداث .

وهذا يسلمنا إلي الاحتمال الرابع والأخير ، وهو أنه لابد لأصل هذا الكون من خالق أزلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شئ ، قوى ليس لقدرته حدود [1]) .

— ***الأساس الثاني :*** ما توصل إليه علماء النفس من أن الدين نتاج اللاشعور الإنساني ، وليس انكشافا لواقع خارجي .

---

(1) *الله يتجلى في عصر العلم. لمجموعة من العلماء. تعليق محمد الفندي ص5 – 6* .

ومن المعلوم أن علماء النفس يرون أن العقل الإنساني مركب من شيئين هما : (الشعور) ، و (اللاشعور) ، فالشعور هو مركز الأفكار التي تخطر على البال والذهن في الظروف العادية .

أما اللاشعور فيعتبر مخزنا للأفكار التي مرت بنا و نسيناها ، ولا تظهر إلا في الأحوال غير العادية ، كالجنون والهستريا ونحو ذلك كما يعتبر عالم اللاشعور أكبر بكثير من عالم الشعور ، إذ أنه يمثل نسبة 1-9 تقريبا .

ويعتقد " فرويد " المتخصص في علم النفس أن اللاشعور قد يقبل أفكارا في الطفولة ، وتؤدى به إلي أعمال غير عقلية ، وهذا ما يحدث ــ من وجه نظره ــ بالنسبة للعقائد الدينية ، ففكرة الجنة والنار ترجع إلي الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبان طفولته ، ولكن لا تسمح له الظروف بتحقيقها فتبقى مكبوتة في عالم اللاشعور إلي أن يفرض حياة أخرى يتحقق له فيها ما كان يتمناه في طفولته ، وقل مثل ذلك في الإنسان الذي لا يستطيع أن يحصل على ما يتمناه فيحلم به ليلا تحقيقا لرغبته .

هذا هو الأساس الذي اعتمد عليه علماء النفس في إنكارهم للدين .

** ***<u>نقد وإبطال هذا الأساس</u>*** :

إن هذا الأساس المبنى على الشعور واللاشعور بعيد كل البعد عن المنطق العلمي الصحيح ، ذلك لأن هؤلاء الملحدين / في آرائهم هذه /

قاسوا أمرا على أمر مع أن بينهما اختلافا كبيرا ، وهذا لا يجوز في القياس الصحيح ، إذ أن له أركانا لابد من تحققها ، فإذا فقد ركن منها صار قياسا باطلا .

وقياسهم قد فقد ركنا مهما ، وهو العلة الجامعة بين المقيس والمقيس عليه ، أو بين الأصل والفرع .

وبيان ذلك أننا كيف نستطيع أن ننكر الدين بناء على أفكار لا تظهر إلا في حالات معينة ، مثل الجنون وأضغاث الأحلام ونحوهما .

فلو افترضنا أن إنسانا يسير في شارع ، وأخذ يهذي بكلام غريب غير مفهوم نتيجة لأفكار مختزنة في ذهنه فهل يمكن أن نستغل هذا الحادث في البحث عن كلام الأنبياء والرسل / عليهم الصلاة والسلام / الذي هو وحي منزل من الله / تعالى / فيه أسرار هذا الكون ؟! .

إن هذه الآراء بعيدة عن الحق والمنهجية العلمية الصحيحة وفي نفس الوقت هي آراء في غير محلها ، بل إن شئت الدقة هي خرافات وأوهام ، إذ كيف يسوى العاقل بين كلام النبوة ، وكلام الذي عنده مس من الجن ؟! .

إن صاحب هذه الآراء يحتاج / أولا / إلي تقويم أخلاقه حتى يستطيع أن يفرق بين كلام الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / ، وبين كلام رجل الشارع ، بالإضافة إلي أن اللاشعور الإنساني فراغ في أصله ، ولا مضمون له ، وذلك أن الإنسان يولد وليست معه أفكار ، وإنما

جاء اللاشعور عن طريق الشعور ، أي الأفكار الموجودة لدى الإنسان حاضرا .

فاللاشعور ــ كما تقدم ــ عبارة عن مخزن للمعلومات التي علمها الإنسان في حياته ولو مرة واحدة ؛ ومن المستحيل أن يختزن حقائق لم يعلمها من قبل .

وغنى عن البيان أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء والمرسلين / عليهم الصلاة والسلام / يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمن ، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات ، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلي العلم بها ؟! .

بالإضافة إلي أن للدين صلة كبيرة بجميع فروع العلم من الطبيعة والفلك وعلم الحياة وعلم النفس والتاريخ والحضارة والاجتماع .. الخ ، وكل حديث في التاريخ البشرى مصدره الشعور واللاشعور لا يخلو من الأغاليط والأكاذيب ، أما كلام النبوة فهو منزه عن الهوى والزيف والغلط والكذب ، وأكبر شاهد على ذلك ما ورد في القرآن الكريم من المعجزات الكبرى التي قال بها وتحققت على أرض الواقع ، ولم يستطع أي أحد أن

يكذب ماجاء فيه منذ نزوله حتي الآن والي مابعد الآن إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها (1) .

ـ *الأساس الثالث : التاريخ* .

ركز الماديون / في هذا الأساس / علي التاريخ ، فقالوا : إن القضايا الدينية وجدت لأسباب تاريخية أحاطت بالأنسان ، سواء أكانت في ميدان الطبيعة كالزلازل والأعاصير ... الخ ، أم في الأمور السياسية كالملك في الدنيا يقابله الملك الأكبر في عالم الغيب .

وبعبارة أخرى فإنه قد عرف / من خلال التاريخ /أن الإنسان/ عندما يواجه الزلازل والأعاصير والأمراض ونحوها ، ولم يستطع أن يفلت منها / يلجأ إلي قوي افتراضية يستغيثها لتنقذه من تلك الشدائد ، وهكذا ظهرت الحاجة إلي شئ يجتمع الناس حوله ، فاستغل اسم : (الإله) الذي تفوق قوته قوة الإنسان !!

وبجانب هذا فإن هناك مؤثرات أخري ساعدت علي خلق الدين ، وذلك كالسياسة والمدنية وغيرها .

ويري أصحاب المادية التاريخية الجدلية أن المادة هي كل الوجود، وأن مظاهر الوجود / علي اختلافها / نتيجة تطور متصل للقوي المادية.

---

(1) انظر : الإسلام يتحدي . وحيد الدين خان ص :34 .

كما يرون أن تركيب المجتمع الإنساني / بما فيـه من القيم المختلفة والأفكار واللغات / ناشئ عن الوضع الاقتصادي .

وعلى هذا فإن الحقيقة المطلقة ، لا مكان لها في الوجود كله ، وإنما يمتد في مكانها وعلى اتساع الوجود كله قانون : (النسبية المتطورة) في كل شئ .

بناء على ما تقدم أنكر الماديون وجود الله / تعالي / لأنهم ركزوا على عاملي التاريخ الاقتصاد .

** ***نقد وإبطال هذا الأساس*** :

إن الرد على منكري الدين في أساسهم الواهي هذا هو أن حديثهم عن كون الإله وجد لأسباب تاريخية هو كلام لا معني لـه ، وقد أثبت العلماء المختصون في العلوم الطبيعية أن أصل الكون مرتبط بزمن بدأ من لحظة معينة ، وأنه لابد لهذا الأصل من خالق أزلي ليس لـه بداية ولا نهاية .

ويمكن الرد على هذا الأساس الواهي وإبطاله من الواقع : فإذا كانت الحياة ليست إلا ثمرة من ثمار المادة الجامدة ـ كما يدعون ـ فلماذا لا يفهمون سر الحياة ؟! ولماذا لا يوجدون الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي ؟! ولماذا لا يقفون على العناصر المادية التي تكونت بتآلفها الحياة ؟! .

وإنهم لم ولن يستطيعوا أن يتوصلوا إلي شئ من ذلك ، ولم يفهموا شيئا عن هذا السر الذي يدخل ضمن القضايا الغيبية التي لا سلطان للعلم عليها . يقول الله /تعالى/ (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا [1]) .

أما استدلالهم بأن الاقتصاد هو المحرك للتاريخ فإن هذا القول لا يزيد عن تكييف هذه الحياة ، وتوجيه بعض أفعال الإنسان ، وتبقي القوي الإنسانية ، ويبقي الوجدان .

وهذا الجدل باطل ـ أيضا ـ في اعتماده على الإلحاد ، فهل هم لم يدركوا ما ينتج عنه من الهبوط بالإنسان إلي درك البهيمة ، بل إلي أدني من ذلك ؟!

إذ أن الإنسان ـ عند ذاك ـ يجري مع غرائزه مطلقا من القيد الطبيعي الذي نشاهده في البهيمة ، ولا يعرف رادعا سوي الخوف من بطش الأفراد والجماعات .

ومن هنا فإن الحاجة إلي الدين وتعاليمه أصيلة في النفس الإنسانية لا يمكن اجتثاثها .

لكن الملحدين عندما استدلوا بالتاريخ والاجتماع لإبطال الدين لا يدرسون الدين من وجه صحيح ، فيجمعون على صعيد واحد كل ما أطلق

---

(1) *سورة الأسراء. الاية 85* .

عليه اسم الدين ولو كان غير إلهى ، ويقررون أن الدين عمل اجتماعي أي ظاهرة من الظواهر الاجتماعية ، وليس كشفا لحقائق كبري .

تلك هي الأسس التي اتكأ عليها الملحدون في نفيهم للدين ، وتلك هي جملة من الردود لإبطال آرائهم وأفكارهم البعيدة عن المنهج العلمي الدقيق ، وتبقي الحقيقة واضحة ، وهي أن العلم ومناهجه القويمة يدعوان إلي الإيمان بأدلة كثيرة واضحة .

لقد أثبت العلم الحديث أن هذا الكون خلق بحكمة وتدبير يدلان على وجود حكيم مدبر ، كما برهن العلماء المتخصصون في جميع مجالات العلوم على أن عجائب علاقات الإنسان بالطبيعة ، ووجود الحياة نفسها تتوقف كلها على وجود الخالق — جل وعلا — ، وعلى وجود قصد من خلق الكون ، ويتمثل هذا القصد في إعداد الإنسان وتكريمه وتكليفه ثم بعثه بعد موته ليثاب أو يعاقب .

إن دراسة العلوم المختلفة — بعقل متفتح — ستقود الباحث — بدون شك — إلي إدراك وجود السبب الأول الذي هو الله / تعالى/ .

لقد من الله / تعالى / على كثير من العلماء بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة ، وصار من الواجب / على كل إنسان ، سواء أكان من

المشتغلين بالعلوم ، أم من غير المشتغلين بها / أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية في تدعيم إيمانه بالله / تعالى / [1] .

إن الأدلة على وجود الله / تعالى / — كما تقدم — لا تقع تحت حصر ، ولا يمكن أن توضع في كتب ، فإن آيات وجوده — جل شأنه — ماثلة في كل ما يحيط بمختلف حواسنا ، فإذا نظرنا إلي الأرض وما عليها من نبات وشجر، وما تحتها من معادن وحجر ، وما يتخللها من مياه ونهر ، وإلى السماء وما فيها من كواكب وأبراج ، ونجوم وأفلاك ، وإذا سمعنا الهواء والرياح والرعد ونظرنا نظرة عابرة أو متعمقة وجدنا آيات وجود الله — تعالي — عند كل شئ ، وفي كل حين [1] .

يقول الله / تعالي / : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسي أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون [2]) .

ويقول / تعالى / : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون [3]) .

---

(1) *انظر : الله يتجلى في عصر العلم. لمجموعة من العلماء تعليق محمد الفندى* ص 28 .

(1) *انظر : الله والعلم الحديث.* عبد *الرزاق نوفل.* ص 19 .

(2) *سورة الأعراف. الاية 185* .

لقد خاطب القرآن الكريم العقول ، ووجه الحديث إلي أهل المعرفة والعلم في مواضع عديدة تقدم كثير منها في المباحث السابقة ، وكلها تدعو إلي التأمل والتفكير والتدبر .

والقرآن الكريم / في حد ذاته / أكبر معجزات الرسول / صلى الله عليه وسلم / وأخلدها وليس أخلد على الأرض من كتاب يتلى ، وليس أبقي عليها ، ولا أنفع للناس فيها من كتاب فيه دواء لقلوب المرضي والبائسين ، وسكن لنفوس الحيارى والمحرومين ، وأمل ورجاء للبشر أجمعين ، فيه شفاء للناس وهدي ورحمة للعالمين ، وغذاء للروح والعقل لكل من أخلص النية بالفعل ، أعجز العرب — وقد نزل بلغتهم — بفصاحته وبلاغته وحكمته وتنبؤاته التي تحققت ، ولا يزال يعجز الخلق أجمعين .

ففي هذا العصر — بل وفي كل زمان ومكان — نرى القرآن الكريم يصف بعض حقائق الوجود المادية ، ويتنبأ بما سيجيء منها في المستقبل بدقة علمية وسلامة لفظية لا مثيل لها في كتاب من الكتب . وهذه بعض الآيات الكريمة في موضوعات من العلوم المختلفة توضح لنا أن هذا الكلام كلام الله / جل وعلا / .

---

(3) *سورة يونس. الآية 101* .

يقول الله / تعالي / : (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فتري الودق يخرج من خلاله[1]).

ويثبت علم الإرصاد الجوي أن الأصل — في إثارة السحب ونزول المطر منها — إرسال الرياح لتتجمع في صعيد واحد ، وتلك حقيقة لا جدال فيها [2] . ويقول الله / تعالي : (فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم[3]) .

إن الإنسان لا يستطيع أن يرفع بصره نحو السماوات العلى إلا ويغضي إجلالا ووقارا لخالقه ، إذ يرى ملايين من النجوم الزاهرة الساطعة ، ويراقب سيرها في أفلاكها وتنقلها في أبراجها .

وكل نجم وأي كوكب ، وكل سديم وأي سيار , إنما هو دنيا قائمة بذاتها ، أكبر من الأرض ، وما فيها وما عليها وما حولها [4] .

ويذكر علماء الفلك أن المسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال ، وهي جديرة بأن يقسم بها الخالق لعظمها , فإن مجموعات النجوم التي تكون

---

(1) *سورة الروم . جزء من الآية رقم 47* .

(2) محمد جمال الدين الفندى. *تعليق على كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص 164* .

(3) *سورة الواقعة. الآيتان 78 – 79* .

(4) *انظر : الله والعلم والحديث. عبد الرزاق نوفل ص 27* .

أقرب مجرات السماء منا تبعد عنا بنحو 700 ألف سنة ضوئية ، والسنة الضوئية تعادل عشرة ملايين الملايين من الكيلومترات [2] .

إن هذه وتلك قطرة من محيط من عالم الخلق والإبداع ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط [3]) .

(2) *انظر : الله يتجلى في عصر العلم. تعليق محمد جمال الدين الفندى ص 164 .*

(3) *سورة فصلت. الآيتان 52 – 53 .*

الخاتمة

الآن ــ بحمد الله وتوفيقه ــ نأتي إلي خاتمة هذه المباحث في علم التوحيد – قسم الإلهيات – .

وقد حاولت ــ بقدر المستطاع ــ الإلمام ببعض المسائل في قضية الألوهية التي تجمعها الجملة العظيمة الأولي من : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، وهي جوهر عقيدة الإسلام ، لأنه لا نجاة لأحد عند الله / تعالى/ إلا بالدخول في الإسلام ، لقوله تعالي : (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين [1]) .

فالإسلام هو دين الله / تعالى / الذي أرسل به جميع أنبيائه ورسله ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ، لقوله / تعالي / : (شرع لكم من الدين ما وصي به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه [2]) ، ولقوله / تعالي / : (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين [3]) .

(1) *سورة آل عمران الآية رقم 84 .*

(2) *سورة الشورى. جزء من الآية رقم 11 .*

(3) *سورة آل عمران . الآية رقم 66 .*

ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن ما جاء به محمد / صلى الله عليه وسلم / هو الإسلام الحق الذي لا نجاة لأحد إلا بالدخول فيه والتصديق به .

ومن ثم فالعقيدة في الإسلام تتركز في الإيمان الكامل والمعرفة التامة بوجود الله / تعالى / ، والإيمان بالأنبياء والمرسلين ، وباليوم الآخر وما فيه ، وبالملائكة ، وبالكتب السماوية الصحيحة , وبالقدر خيره وشره .

وقد جعل الله / تعالى / هذه العقيدة عامة للبشر ، وخالدة على الدهر لما لها من الأثر البين ، والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات .

فالإيمان بالله / تعالى / من شأنه أن يفجر المشاعر النبيلة ، ويوقظ جواس الخير ، ويربي ملكة المراقبة ، ويبعث على طلب معالي الأمور وأسناها ، وينأى بالإنسان عن محقرات الأعمال وسفاسفها .

فالإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل شخصيته ويحقق إنسانيته .

والإنسانية – جميعها – في حاجة ماسة للعقيدة الصحيحة التي يهدي إليها الدين الحق والعقل والعلم ، وهي الإيمان بوجود الله / تعالى / ووحدانيته ، وأنه لا سلطان حقيقيا في الكون كله غير سلطانه ، ولا قوة قاهرة غير قوته ، ولا خالق إلا هو / سبحانه وتعالى / .

وكل ما وراء ذلك فهو مخلوق لله / جل شأنه / يمنحه حيث يشاء ، ويسلبه عندما يشاء ، وأنه الرقيب على عباده كلهم ، وسيبعثهم من بعد الموت ، فيحاسب كلا على ما قدم من عمل .

هذا الإيمان إذا ما استقر في قلب المرء شعر في أعماق كيانه بأنه عبد لهذا الإله الواحد العظيم .

والمعنى الإسلامي يتكامل / لدى المسلم / بالعقيدة الصحيحة ، وبالعبادة والتشريع ، فلا يكون المسلم كامل الإسلام إلا باطمئنان قلبه بالإيمان ، والعمل بما جاء في الإسلام من أوامر ونواه ، وبإتباع شرعته في سائر معاملاته مع الناس وعلاقته بهم .

والأساس الأهم هو العقيدة ، فإذا صلحت صلح السلوك واستقام ، وإذا فسدت فسد واعوج .

وهذه المباحث قد تناولت هذا الأساس بشيء من التفصيل ، من حيث إثبات وجود الله / تعالى / عن طريق منهج القرآن الكريم ، ومسلك علماء التوحيد ، وطريق الفطرة والبداهة ، والأدلة العلمية ، ومن حيث ما يتعلق بصفات الله / تعالى / ، وما يجب في حقه / تعالى / ، وما يستحيل وما يجوز ، وما يتعلق بكل ذلك .

وكل هذه المناهج والطرق توصل إلي نتيجة واحدة مهمة هي الإيمان بالله الواحد الأحد .

وعلماء التوحيد حين يبحثون في العقيدة على أساس من النقل والعقل والعلم / يرمون / من وراء ذلك إلي إثبات عقيدة الإسلام بكل حجة يرون أنها مفيدة للرد على المنحرفين والمبطلين والملحدين ، كما يرمون – أيضا – إلي وصف الله / تعالى / بصفات الكمال والتأثير ، وتنزيهه عن صفات النقص ، ومشابهة غيره من المخلوقات ، وكل ذلك يعتبر منهجا من مناهج القرآن الكريم .

وقد ختمت هذه المباحث بعرض آراء الماديين الملحدين في قضية وجود الله / تعالى / ، ثم الرد عليها وإبطالها بالمناهج العلمية الصحيحة التي سار عليها العلماء المتخصصون في العلوم المختلفة ، الذين قرروا بما لا يدع مجالا للشك والإنكار أن لهذا الكون خالقا متصفا بكل صفات الكمال والتأثير من القدرة الكاملة والعلم الشامل .

كما قرروا أن العلوم / بمختلف أنواعها / تزيد المرء تبصرا بقدرة الله / تعالى / ، وكلما اكتشف الإنسان / من خلال معارفه / شيئا جديدا ازداد إيمانه بالله – جل وعلا – . وصدق الله العظيم حيث يقول :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء[1]) .

وبهذا ينتهي هذا القسم من هذه المباحث في علم التوحيد ، التي أرجو أن تكون وافية بالغرض ، محققة للأهداف المرجوة منها .

---

(1) *سورة فاطر. جزء من الآية رقم 28* .

والله ندعو أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن الذين ينطبق عليهم قوله تعالى :
((شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم[1])) .

تعاليت يا رب ، ما أجلك ، خلقت الخلق ، وأجريت الرزق ، بك ينمو الزرع ويدر الضرع ، سبحانك اللهم ما أوسع ملك ، وما أعظم سلطانك ، السماء والأرض لك ، والملائكة الأطهار جندك ، والخلق كلهم عبيدك . تباركت وتعاليت ، صنعت فأعجزت ، وصورت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك .

لا إله إلا أنت منحتنا بصائر لا تنكرك ، وأبصارا لا تدركك ، يسبح الرعد بحمدك ، ويترنم الطائر بمجدك ، البحار لا تقر من خشيتك ، والجبال جامدة من هيبتك ، لقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب كل مخلوق في رحمتك .

تباركت وتعاليت لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ! . آمن بك المؤمن ، ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك ، سبحانك يا الله ما أعظمك !! .

---

(1) *سورة آل عمران. الآية رقم 18* .

رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات إنـــك سـميع الدعـــاء مجيب الرجاء . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

د. سالم محمد مرشان .

الخمس في 18 ـ 3 ـ 1426 م

المصادر والمراجع

1 ـ الإبانـــة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري . تقـــديم د. فوقية حسين . دار الأنصار. القاهرة 1977 م .

2 ـ أبو الحسن الأشعرى . د. حمودة غرابة . المطبعة الأميريـة القاهرة 1973 م .

3 ـ إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي . الحلبـــي . القـــاهرة 1939 م .

4 ـ الإرشاد إلي قواطـــع الأدلة فـــي أصـــول الاعتقـــاد لإمـــام الحرمين الجويني . الخانجي . القاهرة 1950 م .

5 ـ الاقتصـــاد فـــي الاعتقـــاد لأبي حامـــد الغزالي . تحقيـــق د. عثمان عيش . القاهرة 1973 م .

6 ـ ابـــن رشـــد والرشديـــة . أرنســـت رينـــــان . ترجمـــة عادل زعيتـــر . إحياء الكتب العربية . القاهرة 1950 م .

7 ـ التحقيق التام في علم الكلام . محمد الحسيني الظواهـــري . القاهرة 1939 م .

8 ـ التفسير الكبير . فخر الدين الرازى . المطبعة العامرة القاهرة 1324 هـ .

9 ـ تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام . عبد القادر الكردستاني . الأميرية . القاهرة 1319 هـ .

10 ـ الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به . القاضي الباقلاني . تحقيق : محمد زاهد الكوثري . مطبعة الخانجي . القاهرة 1963 م .

11 ـ الله. عباس محمود العقاد. دار المعارف. القاهرة 1947 م.

12 ـ الله والعلم والانسان . د. محمد جلال شرف . دار المعارف القاهرة 1971 م .

13 ـ التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (صلعم) . منصور علي ناصف . دار إحياء التراث . بيروت . 1960 م .

14 ـ الدين والوحي والاسلام . مصطفي عبد الرازق . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة 1945 م .

15 ـ الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين الجويني . تحقيق د. علي سامي النشار وزميليه ، بدون تاريخ .

16 ـ علم الكلام وبعض مشكلاته . د. أبو الوفاء التفتازاني . دار الثقافة . القاهرة 1979 م .

17 ـ غاية المرام في علم الكلام . سيف الدين الامدي . تحقيق حسن محمود عبد اللطيف . القاهرة 1971 م .

18 ـ فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية . محمد صالح الزركان ، بدون تاريخ .

19 ـ فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الإتصال . ابن رشد . القاهرة 1910 م .

20 ـ قضية الألوهية . عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي القاهرة 1971 م .

21 ـ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة . ابن رشد القاهرة 1910 م .

22 — لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة لإمام الحرمين الجويني . تحقيق : د . فوقية حسين محمود القاهرة 1965 م .

23 — كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري . تعليق د . حمودة غرابة . القاهرة 1950 م .

24 — الملل والنحل . محمد عبد الكريم الشهرستاني . تحقيق : سيد كيلاني . القاهرة 1960 م .

25 — المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي . تحقيق : عبد الحليم محمود . القاهرة 1972 م .

26 — المواقف . عضد الدين الايجي . المطبعة العامرة . القاهرة 1292 هـ .

27 — نهاية الإقدام في علم الكلام . محمد عبد الكريم الشهرستاني . تصحيح : الفرد جيوم بغداد ، بدون تاريخ .

28 — الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . بيروت ، بدون تاريخ .

29 — الله ذاتا وموضوعا . عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي . القاهرة 1971 م .

30 — كتاب دلائل التوحيد . محمد جمال الدين القاسمي . جمعية النشر والتأليف . القاهرة . بدون تاريخ .

31 — توضيح العقائد . عبد الرحمن الجزيري. القاهرة 1933 م.

32 — الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري . أدم متز . ترجمة : محمد عبد الهادي أبوريدة . بيروت 1967 م .

33 — قواعد العقائد . لأبي حامد الغزالي . تحقيق : سعيد زايد . القاهرة 1960 م .

34 — الجانب الإلهي عند ابن سينا . د . سالم محمد مرشان . دار قتيبة . بيروت 1992 م .

35 — العلم يدعو الى الايمان . كريس مورسن . ترجمة : محمود الفلكي . تقديم : د. احمد زكي . القاهرة 1971 م .

36 — مجموعة الحواشي البهية على شرح العقائد النسفية . سعد الدين التفتزاني . القاهرة 1329 هـ .

37 ـ رسالة شمس الحقيقة والهداية /محمد على بدر/ القاهرة 1928 م

38 ـ دراسات في الحديث النبوي . السيد محمد الحكيم . القاهرة 1969 م .

39 ـ المنهل الحديث في شرح الحديث . د. موسى لاشين وزميله . القاهرة 1965 م .

40 ـ المقدمة . عبد الرحمن بن خلدون . تحقيق : علي عبد الواحد وافي . دار الشعب . القاهرة ، بدون تاريخ .

41 ـ ابن القيم وموقفه من التفكير الاسلامي . د.عوض الله حجازي مجمع البحوث الإسلامية . القاهرة 1972 م .

42 ـ الاسلام يتحدى . وحيد الدين خان . تقديم : عبد الصبور شاهين . القاهرة 1977م .

43 ـ علم التوحيد . خضر جلال الدين . القاهرة 1318 هـ .

44 ـ العقيدة والأخلاق . د. محمد بيصار . القاهرة 1968 م .

45 ـ الفلسفة القرآنية . عباس العقاد . القاهرة ، بدون تاريخ .

46 ـ الدليل الصادق. عبد العزيز جاب الله. القاهرة 1316 هـ .

47 ـ الفرق بين الفرق . عبد القاهر البغدادي . بيروت ، 1973.

48 ـ البيان في تصحيح الإيمان . إبراهيم عبد الباقي . القاهرة ، بدون تاريخ .

49 ـ تقريب المرام في شرح تهذيب الكلام . فرج الله زكي الكردستاني . القاهرة 1319 هـ .

50 ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . عباس العقاد . القاهرة 1957 م .

51 ـ إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري للقسطلاني . القاهرة 1288 هـ .

52 ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. مصطفي عبد الرازق . القاهرة 1944 م .

53 ـ طبقات الشافعية . ابن تقي الدين السبكي . بيروت بدون تاريخ .

54 — تبيين كذب المفترى فيما ينسب للامام أبي الحسن الأشعري . ابن عساكر الدمشقي . دمشق 1399 هـ .

55 — مذكرة التوحيد . حسن السيد متولي . القاهرة 1967 م .

56 — شرح الخريدة في علم التوحيد . احمد الدردير . تعليق : حسين مكي . القاهرة 1954 م .

57 — العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . عبد الحميد بن باديس . الجزائر 1966 م .

58 — فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان . الشيخ سلامة القضاعي العزامي . القاهرة 1358 هـ .

59 — الله والعلم الحديث . عبد الرزاق نوفل . القاهرة 1971 م .

60 — كبري اليقينيات الكونية . د. محمد سعيد رمضان البوطي . دار الفكر . دمشق 1394 هـ .

61 — تحفة المريد على جوهرة التوحيد . الشيخ ابراهيم البيجورى . القاهرة 1939 م .

62 — شرح الأصول الخمسة . للقاضي عبد الجبار . تحقيق : عبد الكريم عثمان . القاهرة 1965 م .

63 — علم الكلام ومدارسه . د. فيصل بدير عون . القاهرة 1977 م .

64 — كتاب التوحيد . أبو منصور الماتريدي . تحقيق : د. فتح الله خليف . القاهرة ، بدون تاريخ .

65 — التمهيد في أصول الدين للقاضي الباقلاني . نشر الخضيرى و أبي ريدة . القاهرة 1367 هـ .

66 — شرح المقاصد . سعد الدين التفتزاني . دار الطباعة العامرة . استنبول 1277 هـ .

67 — مشارق أنوار العقول . أحمد العلوي . القاهرة 1314 هـ .

68 — القول السديد في علم التوحيد . محمود أبو دقيقة . القاهرة 1936 م .

69 — محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين والعلماء والحكماء والمتكلمين . فخر الدين الرازي . القاهرة 1323 هـ .

70 ـ صحيح مسلم بشرح النووي . القاهرة 1349 هـ .

71 ـ شرح أسماء الله الحسنى . فخر الدين الرازي . مراجعة وتعليق : طه عبد الرؤوف سعد . القاهرة 1976 م .

72 ـ قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والاسلام . د. توفيق الطويل . الإسكندرية 1947 م .

73 ـ عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الاسلام . يحي هاشم فرغل . القاهرة 1972 م .

74 ـ قصص الأنبياء . ابن كثير . تحقيق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا . بيروت 1982 م .

75 ـ رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام . لأبي حسن الأشعرى . حيدر أباد 1323 هـ .

76 ـ رسالة التوحيد . محمد عبده . القاهرة 1372 هـ .

77 ـ العقيدة والشريعة في الإسلام . جولتسيهر ترجمة : د. محمد يوسف موسى وآخرون . القاهرة 1946 م .

78 ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي . القاهرة 1901 م

79 ـ مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعرى . القاهرة ، بدون تاريخ .

80 ـ تفسير التحرير والتنوير. الشيخ محمد الطاهر بن عاشور . تونس ، بدون تاريخ .

81 ـ اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر . عبد الوهاب الشعراني . القاهرة 1959 م .

82 ـ استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات . محمد الخضر . القاهرة ، بدون تاريخ .

فهرس الموضوعات